

عفاف

قصّة هادفة

تأليف
أم حسّان الحلو

تقديم
محمد رشيد العويّد

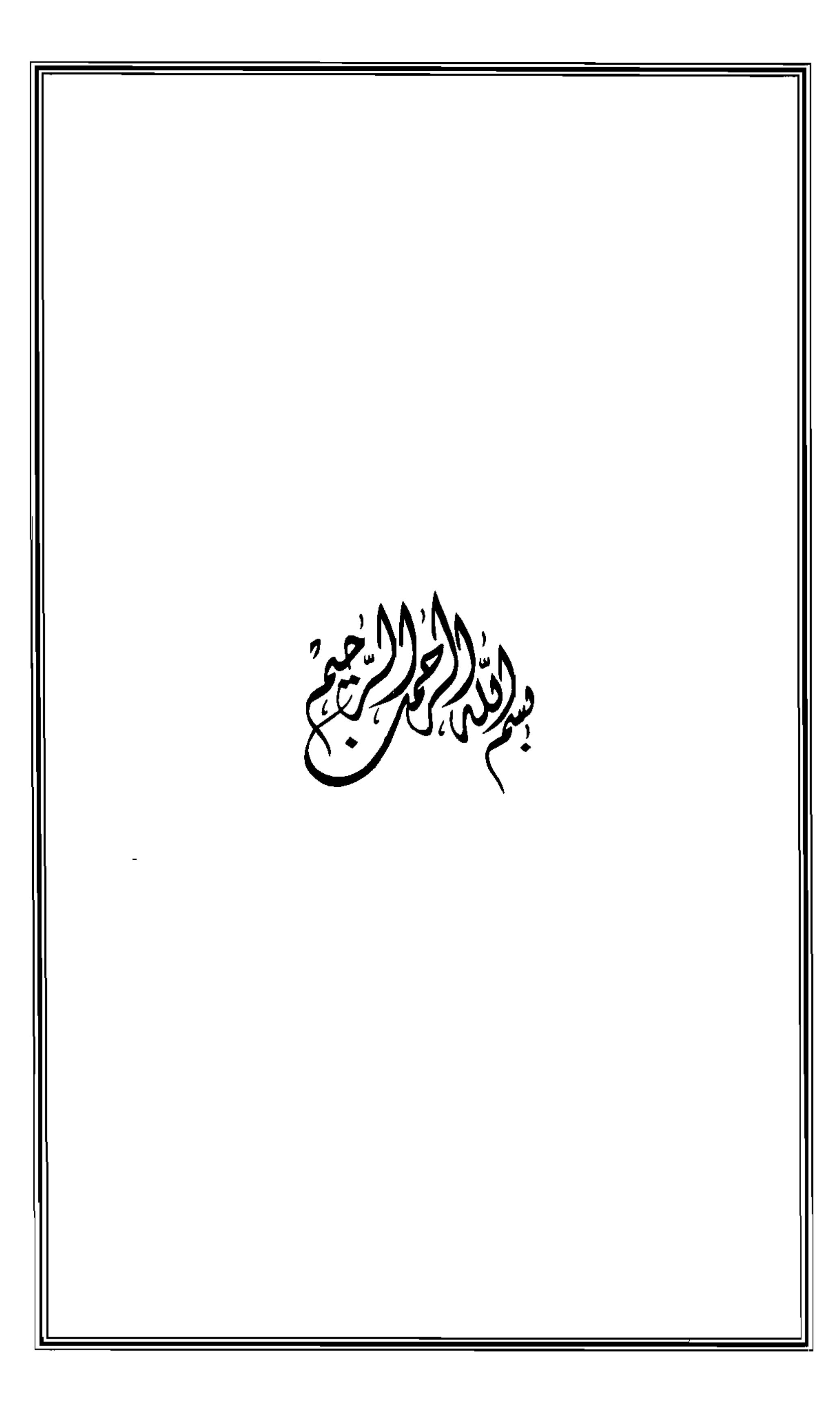
دار ابن حزم


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com



عفاف

قصّة هادفة



بسم الله الرحمن الرحيم

عفاف

قصّة هادفة

تأليف
أم حسّان الحلو

تقديم
محمد رشيد العويّد

دار ابن حزم

الطبعة الثانية

١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م

الكتب والدراسات التي تصدرها الدار
تعبر عن آراء واجتهادات أصحابها

دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - لبنان - ص.ب: ١٤/٦٣٦٦ - تلفون: ٧٠١٩٧٤

بسم الله الرحمن الرحيم

المقـدّمـة

أرىٰ أن جميع من سيقرؤون قصة «**عفاف**» سيعجبون بإيمانها، ويرتاحون إلىٰ خلقها، ويحترمون تمسكها الواثق بالقيم الإسلامية.

لقد كانت شخصية «**عفاف**» شخصية معافاة، لا عُقَد فيها، سواء عقدة النقص التي ابتليت بها كثيرات من بنات مجتمعاتنا، أو عقدة «*الخواجة*» التي تنهزم فيها بنات أخريات أمام ما يأتي من الغرب أو الشرق.

ولم تكن عفاف، مع تمسكها التام بدينها، فظّة في تعاملها مع الآخرين؛ بل كانت رقيقة الحاشية، مهذبة الطبع، لا يملك من يعرفها إلا أن يحمل لها كل مودة واحترام.

لا أريد مواصلة الكشف عن ملامح شخصية بطلة هذه القصة، التي جاء عنوانها علىٰ اسمها، ولا عن ملامح

باقي شخصيات القصة، وأترك للقارىء التمتع بمطالعتها كما تمتعت.

ما أردته هو التذكير بأننا ما زلنا بحاجة، وحاجة كبيرة، إلىٰ روايات وقصص إسلامية، تحبب الشخصيات المؤمنة، الملتزمة، إلىٰ بناتنا وأبنائنا.

فالأبحاث والمقالات والدراسات التي تدعو المرأة إلىٰ دينها، وتحثها علىٰ التمسك به، وتبين لها ما يقدمه لها، ويعدها به، علىٰ أهميتها ودورها، تبقىٰ دون الرواية والقصة في التأثير في بناتنا ونسائنا اللواتي تُبثّ إلىٰ بيوتهن المسلسلات والأفلام، وتُبثّ معها الأفكار الخاطئة، والمفاهيم المضللة، التي تصوغ تصورات المرأة دون انتباه منها.

* * *

لقد عرفت مؤلفة هذه القصة الأستاذة أم حسان الحلو، قبل أكثر من سبع سنوات؛ حين كانت ترسل بكتاباتها إلىٰ صفحات «*مؤمنة*» في مجلة «*النور*» التي أعمل مديراً لتحريرها، فكنت أرتاح لكتاباتها الملتزمة، وأسلوبها الأدبي الجميل.

وقصتها هذه، نشرت أيضاً في صفحات «**مؤمنة**»، ولاقت قبولاً طيباً، وإقبالاً كبيراً من قارئات مجلة «**النور**» وقرائها.

ويسرني اليوم أن أقدمها إلىٰ القارئات، داعياً الله أن ينفع بها، ويثيب كاتبتها، إنه سميع مجيب الدعاء.

محمد رشيد العويد



«الفصل الأول»

«عفــاف»

حملت أوراقهـا وأسرعت خطاهـا قاصـدة دائـرة التسجيل. كانت كعـادتها تسير بخطىٰ واثقة رزينة لا تلتفت يميناً ولا شمالاً. . . . لكن الاعلانات المتشابهة والمتتابعة اليوم لفتت نظرها. . . . قاومت بضعة إعلانات ثم توقفت لتقرأ شيئاً من هذه الإعلانات الملحة.

«أهلًا بأصغر حامل دكتوراه في الشرق الأوسط»

مشت خطوتين إلىٰ اليمين ثم قرأت:

«الدكتور سراج سَيُنير كليتنا ودروبنا»

تساءلت عفاف في نفسها: وماذا سيدرس الدكتور سراج هذا؟ ثم قالت: الخبر اليقين في دائرة التسجيل، فأسرعت الخطىٰ قاصدة تلك الدائرة. مدت يدها لتفتح البوابة الزجاجية فرأت من خلف الزجاج زميلاتها غادة

وكأنكن في حفل زفاف. هل هناك مناسبة اليوم؟

أجابت رانية علىٰ الفور: . .مناسبة سعيدة جداً ألم تعرفي؟ :ـ

وقالت عبير ألم تقرأي الإعلانات؟؟. . اليوم مساء حفل استقبال الدكتور سراج عمر!!

مصمصت عفاف شفتيها ولم تبد أي اهتمام بهذا الحفل إلا أنها استأذنت زميلاتها وأسرعت الخطىٰ لتسجيل مادة الفلسفة «٤٠٢» فهي علىٰ وشك التخرج وتحرص كثيراً علىٰ تسجيل هذه المادة وأخذ بطاقتها. . . . إلا أن إجابة المشرف فاجأتها:

آسف، لقد انتهت بطاقات هذه المادة قبل ساعتين فقط.

أجابت عفاف بانفعال: لكني بحاجة لتسجيل هذه المادة فماذا أفعل؟.

يمكنني وضع اسمك علىٰ قائمة الانتظار في حال انسحاب أحد الطلبة فأسجل اسمك.

حزنت عفاف لهذا النبأ. . لكنها أتمت تسجيل بقية

المـواد بسهـولـة ويسر. وتساءلت في نفسها: لماذا كان الازدحام خاصاً بهذه المادة؟ . . بدأت تسير ببطء وتتحدث مع نفسها:

ماذا عساني أن أفعل!! وهل هناك كثير غيري في مثل حالتي فنطالب بفتح شعبة جديدة... أم!! . . . رفعت عينيها فوجدت زميلاتها الثلاث. أسرعت إليهن وسألتهن:

هل أتممتمن تسجيل موادكن؟.

أجابتها عبير: ليس بعد.

سألت عفاف: ومادة الفلسفة ٤٠٢!!

ضحكت رانية وقالت. منذ أيام... سجلناها بطرقنا الخاصة فهذه مادة الدكتور سراج!!.

ازداد امتعاض عفاف. استأذنت من زميلاتها وخرجت مسرعة نحو بيتها.. فحدثت أمها بالخبر.

علقت أمها قائلة: . . كوني على يقين تام يا ابنتي أن من يتق الله يجعل له مخرجاً.

ابتدأت الدراسة . . . وعفاف تدعو الله ليل نهار أن ييسر لها أسباب التخرج . . وفي ذات صباح ذهبت كعادتها لقـراءة لوحـة الإعـلانـات ومجلة الحـائط . . . فوجئت بتخصيص هذا العـدد الأسبـوعي للدكتور سراج . . . فابتدأت المجلة افتتاحيتها بكلمات ترحيب حارة بالدكتور القادم وصور الحفل الذي أقيم للدكتور سراج . . . بدأت تتأمل الصور . . . هذه صورة الدكتور سراج . . . يراقص عبير . . . وهذه يقترب من رانية أو تقترب هي منه إلىٰ حد بعيد . . . . وهذه حلقة بنات يرقصن والدكتور سراج في وسطها يرقص والكل يضحك؟ !!

تساءلت عفاف : . . وهل كل هذا حصل في الحرم الجامعي؟؟ . . والله لا أدري لماذا سميت مباني الجامعة بالحرم الجامعي؟ .

هل لأن الحرمات جميعها أو معظمها تنتهك فيها؟؟ . نقلت عفاف بصرها علىٰ مجلة الحائط تلك . فرأت صورة لزمليتها رانية بجانب الدكتور سراج يرتشفان القهوة . . . وقد تركت علىٰ الطاولة التي أمامها مجموعة من الأوراق والأقلام . . . وقد كتب تحت الصورة : مندوبتنا تجري

مقابلة مع الدكتور سراج!!

قالت عفاف. لابد من معرفة هذا الأستاذ الغريب. فقرأت:

س: هل لك أن تعطينا نبذة عن حياتك؟

ج: ولدت في بلدة «*ذاتا*» قبل أربع وعشرين عاماً بالضبط. دخلت الابتدائية وأنا ابن أربع سنوات ونصف وكنت متفوقاً. ثم أتممت دراستي الابتدائية والمتوسطة والثانوية في قريتي الحبيبة.. وفي الثانوية العامة كنت الأول علىٰ بلدتي وحصلت علىٰ منحة دراسية إلىٰ أمريكا. وخلال سبع سنوات ونصف حصلت علىٰ البكالوريوس فالماجستير فالدكتوراه... ثم الآن استلمت عملي في هذه الجامعة.

س: ما رأيك في جامعتنا؟

ج: ممتازة المباني والأجهزة والتصميمات. لكني أتمنىٰ أن تتحسن فيها مستويات أخرىٰ.

س: مثل.

ج: **الإنسان. الطلبة بشكل خاص والعلاقة بين الشباب والفتيات علىٰ وجه الخصوص. علاقة جافة رسمية. أكاد لا أصدق أن بين الطلبة هذه الحواجز... تصوري جاءني كثير من الطلبة يطلبون تغيير مقاعدهم وأرقامهم لأنها بين بنات! هذه كانت مفاجأة لي في بداية العام.... ولا أدري ماذا ستحمل الأيام!!**

س: وكيف تكون العلاقات المثالية في نظرك؟

ج: أن تكون علاقات بسيطة بلا قيود أو حدود، علاقة صداقة متينة. بصراحة أنا أحترم الفتاة التي تتعامل مع الشباب كأنها واحد منهم. فتشاركهم سهراتهم وجلساتهم ورحلاتهم..

سؤال شخصي جداً!! قال الدكتور سراج: تفضلي يا عزيزتي.

س: هل تفكر بالزواج؟ ومن هي فتاة أحلامك؟.

ج: فتاة أحلامي. جميلة.. مثقفة. بسيطة. عصرية الشكل والأفكار. عندما أجدها سأفكر بالزواج... أقصد وجودها سيفرض علي التفكير

بالزواج والدخول في القفص الذهبي... ثم ضحك.

توقفت عفاف عن القراءة وأدركت أن الصور المعلقة ما هي إلا واقع الأفكار المحلقة!!

جلست عفاف جانباً تقاوم الدوار وموجة الاكتئاب التي انتباتها. شعرت باشمئزاز من مادة «٤٠٢» هذه ومن الـزميلات والأستاذ جميعاً. خاطبت مادة «٤٠٢» كأنها إنسان وقالت: صدق المتنبي عندما قال:

ومن نكد الدنيا علىٰ الحر أن يرىٰ

عدواً له ما من صداقته بُدُّ

ثم اتجه قلبها إلىٰ الله سبحانه وتعالىٰ وناجته قائلة:

اللهم يسّر لي التخرج وتقبل مني طلبي للعلم ولا تؤاخـذني يارب بما يحدث في جامعتي. قاومت انحدار دمعتين ساخنتين علىٰ وجنتيها. ثم وقفت بجانب الباب تتظاهر بمراقبة الداخل والخارج... وإذ بها ترىٰ زميلاتها مقبلات.... عادت إلىٰ مكانها وأخرجت من حقيبتها شيئاً وأخذت تقرؤه.

أقبلت زميلاتها بدأن يتأملن صورهن بكل فخر واعتزاز. ويقرأن المقابلة بصوت مرتفع... قالت غادة... يالك من فتاة يا رانية!!

وهل سألته عن الزواج؟ وتضاحكن... إلا أن عبير كانت حزينة واجمة مطرقة الرأس. ثم رفعت رأسها وقالت لزميلاتها: هذا هو القرار الصحيح. لا بد من الانسحاب من مادة «٤٠٢» هذه ـ فأنا حتىٰ الآن لم أفهم شيئاً ولا أمل لي بالنجاح.

أجابتها رانية... أمجنونة أنت حتىٰ لو كانت المادة صعبة... فالدكتور سراج سيسهلها لنا وسننجح!!

ـ لا يا عزيزتي إنه ليس منهم. أنا لا أحب الكذب علىٰ نفسي إلىٰ درجة بعيدة. غداً آخر موعد للانسحاب وسأنسحب اليوم. ثم التفتت إلى عفاف وقالت:

تعالي معي. سوف أنسحب من مادة «٤٠٢» وتسجلين مكاني. تهللت أسارير عفاف وشكرت زميلتها محاولة الاستفسار عن سبب الانسحاب.

فقالت عبير:

المادة صعبة إلىٰ أبعد الحدود. لا أمل لي في النجاح. ثم أني لست علىٰ أبواب تخرج... خذي هذه بطاقتي. أرجو لك النجاح.

أتمت عفاف تسجيل مادة «٤٠٢» أخذت بطاقتها وسجدت لله شاكرة...

❊ ❊ ❊ ❊ ❊ ❊

انتظمت عفاف في دراسة مادة الفلسفة «٤٠٢» إلا أنها لم تكن لتفهم من المحاضر شيئاً لكثرة الفوضىٰ والتعليقات الجانبية والنكات المفتعلة أثناء المحاضرة.

نظرت عفاف إلىٰ الصف الأول المزدحم والذي تصدر منه شتىٰ الأصوات والضحكات. تأملت الرؤوس المتمايلة والتسريحات المتباينة وتأكدت أن مصدر العطر النفاذ يأتي من الصف الأول هذا... مارت في أعماقها مشاعر غامضة وصرفت وجهها تلقاء النافذة. وقالت هامسة.

«*ياحسرة علىٰ العباد*»... ثم سمعت الأستاذ يختم حديثه قائلاً: أكتفي بهذا القدر اليوم والذي يرغب في السؤال فليتفضل.

تساءلت عفاف. وهل فهمت حتىٰ أسأل؟؟ هل هذه محاضرة تتخللها أسئلة؟...

أم هي أسئلة تتخللها محاضرة؟!

مرت عدة محاضرات. وعفاف لم تجن منها سوىٰ الفوضىٰ والاضطراب وتداخل المعلومات وامتزاجها بطريقة تذيب الحقائق وتقلب القيم.

إزاء ذلك أقنعت عفاف نفسها بأن دراسة هذه المادة هو ضرب من مجاهدة النفس وتحمل الصعاب من أجل هدف أسمىٰ. لذا قررت أن تنهل المادة من مراجعها الأصلية، وتبحث بها بحوثاً منفصلة تماماً عن حضورها. وما كان ليهمها من حضور المحاضرة سوىٰ تسجيل اسمها وتدوين العناوين الرئيسية للمحاضرة.

وحان موعد الامتحان الشهري. دخلت عفاف الامتحان واثقة من عملها ومن ترتيب معلوماتها. ومتوكلة علىٰ ربها سبحانه... وخرجت من الامتحان وهي تحمد الله أن وفقها للإجابات الصحيحة.

استلم الدكتور سراج أوراق الطلبة أخذ بتصحيحها. استوقفته ورقة عفاف طويلاً. تساءل في نفسه. من تكون

عفاف هذه. هل هناك فتاة في الكلية لم أعرفها. أقصد لم تتعرف علي. فكيف تكون في فصلي فتاة ولا أعرفها. قرأ الاسم مرة ومرة... توقع أن يكون اسماً لطالب لم يعرفه كغيره من الطلاب.

أما أن تكون فتاة ولا يعرفها؟! قد يكون هذا أمراً مستحيلاً بالنسبة له.... وما كانت لتلفت هذه الورقة انتباهه إلا لما فيها من ترتيب أفكار، وإجابات نموذجية رائعة ومقنعة تماماً.

إن في الورقة هذه علماً أوسع من الذي درسه هو!! ترىٰ هل صاحبة هذه الورقة تعيد المادة؟ أم أنها أستاذة وليست طالبة؟. وضع الورقة أمامه وقلبها مراراً وقرر أن يضع عليها علامة كاملة. ويشطب الاسم الأول لحاجة كامنة في نفسه.

حمل الأوراق ودخل قاعة المحاضرات. وبدأ بتوزيعها وإعلان النتائج. أحمد... علي... غادة... توقف قليلاً ونظر إليها قائلاً... نتيجة غير متوقعة. ثم تابع نداءه علىٰ الطلبة... وتوقف قليلاً ونظر إلىٰ رانية وقال: رانية... هذه ورقتك... رسوب بجدارة!!

ضحك جميع من في القاعة. . . . ووقف الأستاذ ليعلن. . هناك ورقة نسي صاحبها كتابة اسمه عليها. أرجو. أكرر: أرجو من الذي لم يستلم ورقته مراجعتي في المكتب.

علمت عفاف أنها المقصودة بهذا الأمر. وقالت في نفسها: من سأصحب معي إلىٰ مكتبه؟ وقبل أن تبدأ البحث رأت زميلتها رانية تجري مسرعة خلف الدكتور سراج قاصدة مكتبه. فاستأذنتها لتصحبها إلىٰ نفس الغاية.

بدأ الدكتور سراج غير مكترث لحضور الطالبتين. إلا أنه كان يسترق النظر إلىٰ عفاف. ثم رفع رأسه وأخذ نفساً عميقاً من غليونه. نظر إلىٰ رانية وقال: خير؟ قالت. أرجو مراجعة ورقتي.

قال آسف. آسف جداً. ثم نظر إلىٰ عفاف طويلاً وقال وأنت؟.

قالت: لم أستلم ورقتي. تناول الورقة من علىٰ مكتبه وقال: الاسم الكريم.

قالت: عفاف عبدالله. كرر وراءها اسمها وكتبه

بالخط الأحمر ثم تأمل ورقتها مرة أخرىٰ وأخيرة. أحسَّ أن هذه ورقة عزيزة جداً عليه. قلبها ثم قال مبتسماً: تفضلي تفوق مشرف!!.

أخذت عفاف الورقة وانطلقت مسرعة كمن يهرب من كمين ـ أما هو فوقف بجوار باب مكتبه حتىٰ إذا توارت عفاف عن الأنظار أغلق الباب وجلس يفكر ويتأمل.

* * * * * *

أوشك الفصل الدراسي علىٰ الانتهاء. وعلامات عفاف في ارتفاع مستمر وعلامات رانية في تدهور مستمر. وكان لزاماً علىٰ الدكتور سراج أن يبدأ بوضع أسئلة الامتحان النهائي.

وفي ذات صباح أغلق باب مكتبه علىٰ نفسه وأحضر جميع مراجعه وكتبه وملخصاته.... فقد قرر أن يكتب أسئلة هذا الامتحان الهام.

في ذهنه عدة أسئلة يمكنها أن تعكس مقدار فهم الطلبة للمادة إلا أنه كان كلما قرر أن يضع سؤالا كانت تقفز أمام عينيه صورتان لإجابتين محتملتين الأولىٰ لطالب متفوق

بامتياز يخيل إليه أن اسم عفاف عبدالله سيكون عليها والثانية لطالب فاشل بجدارة.

كان لا يستطيع قراءة اسم صاحب الورقة جيداً. فقد يكون أو تكون رانية. أو غادة أو جميع أفراد الصف الأول.

كانت لهذه التصورات سلطة علىٰ قلمه وعلىٰ مستوىٰ أسئلته... ثم قرر أن يشفق علىٰ الضعيفات ويكتب لهن أسئلة ميسرة الإجابة سهلة. وكان يقسم أمام نفسه بأن لم يستطع الإجابة علىٰ مثل هذا السؤال يستحق الرسوب غير مأسوفٍ عليه.

ثم قرر أن يضع مجموعة أسئلة أخرىٰ يستطيع الإجابة عليها متوسطو الاجتهاد... فهو يحب أن تنجح الغالبية. ولكن للتفوق طعماً، والطالب المتفوق بالنسبة له يقف متألقاً علىٰ قمة الهرم الطلابي، وهذه القمة لا تتسع إلا لأقل من القليل. لذا فإن هناك سؤالاً خاصاً بالمتفوقين لا يستطيعه غيرهم بل لا يستطيعه إلا واحد منهم.

شعر أنه يجب أن يكون أستاذاً متفوقاً كي يستطيع كتابة أسئلة خاصة بالمتفوقين هذه. فقد احتار كثيراً في كتابة هذه الأسئلة.

كان يقرر السؤال في الصباح ويقرر إلغاءه في المساء.
وفي كل مرة يتصور إجابة عفاف عبدالله.

بدأ يحس أن هذه الأسئلة ستكون تحدياً لهذه الطالبة المتفوقة والتي تعرف جيداً ما تقرأ وما تسمع وما تقول وما تكتب.. لذا فإن هذه الأسئلة ستكون عبارة عن كمائن هجوم في حرب باردة طالت بينه وبين عفاف عبدالله.

وأخذ يقلب أوراقه ربما للمرة العاشرة عله يعثر على جزئية من الجزئيات المهملة والتي يمكن أن تحتقرها عفاف ولا تلتفت إليها...

وبدأت تتبلور أمام ناظريه عدة احتمالات. وقرر أن يمسك العصا من الوسط فيضع سؤالا منبثقاً من فلسفة التربية التي يدرسه وموجهاً إلى الطالبة المتفوقة التي يريد أن يفرح لزللها ولو لمرة واحدة. وبعد طول تفكير. اعتدل فجأة واتكأ على كرسيه ورمى قلمه على طاولته. وقهقه بصوت هستيري وقال. وجدتها.. وجدتها.. أجل وجدتها.

* * * * * *

سؤال ممتاز جداً عن فلسفة «**الحب**» وسأضعه بصيغة أكثر من «**بريئة**» تملكته حيرة في صياغة السؤال لا تقل عن تلك التي تملكته عند اختيار السؤال. . . وأخيراً قرر أن يصنعه بالصيغة التالية:

«تحدث عن فلسفة الحب عند الغرب وما تعليقك عليها؟؟»

ثم نظر إلىٰ ورقة الأسئلة في شكلها وصيغتها النهائية. . . . .

وكلما قرأ سؤاله الأخير. أحس بنشوة الانتصار وشعر أنه متفوق. . ليس فقط في وضع الأسئلة بل وفي نصب الكمائن أيضاً.

وجاءت ساعة الصفر. . . ساعة توزيع أوراق الامتحانات. دخل الدكتور سراج قاعة الامتحان بثقة تامة و ابتسامة عريضة. . .

قرأ الأسئلة علىٰ طلابه بصوت مرتفع بعد توزيعها وقال معلقاً: أرجو الانتباه جيداً للسؤال الأخير. . توقف قليلاً بدأ يجول بناظريه في القاعة باحثاً عن عفاف التي تغير موقعها فأصبحت في الصف الأول. وعندما عثر عليها

أكمل بصوت مرتفع وهو ينظر حولها.

أرجو الانتباه جيداً للسؤال الأخير. . . . إن التعليق الشخصي علىٰ هذه الفلسفة لا يقل أهمية بأي حال من الأحوال عن الإجابة عن السؤال. . . ثم ابتسم ابتسامة خبيثة ونظر إلىٰ عفاف التي كانت منكبة علىٰ أوراقها غارقة في تفكيرها بالإجابات السليمة . .

إلا أنه لاحظ أنها وضعت علامة ما عند السؤال الأخير.

سجلت عفاف علىٰ ورقة الإجابة إجابات سليمة واضحة مقنعة. وكانت إجابة السؤال الأخير بالنسبة لها أمراً بديهياً كتبته دون إعطائه هذه الأهمية.

انتهىٰ وقت الامتحان. وجمعت أوراق الإجابات. حملها الدكتور سراج إلىٰ مكتبه وأغلق الباب علىٰ نفسه. . . قلب الأوراق بسرعة واستخرج منها ورقة عفاف عبدالله. بدأ يقرأ إجابة السؤال الأخير. شعر في البداية أنه لم يفهم شيئاً من الإجابة لكنه أحس بفشل الكمين الذي أعده فشلاً ذريعاً وأن الإجابة جاءت سليمة بعيدة تماماً عن السقوط.

سمع طرقات علىٰ بابه مكتبه. دس ورقة عفاف تحت جميع الأوراق وفتح الباب فوجد زمرة من الطلبة جاءوا ليستفسروا عن الإجابات الصحيحة.

كُنَّ يبدين رغبة ملحة لمعرفة إجابة السؤال الأخير. . . قال لهن: أعتقد جازماً بأن عفاف قادرة علىٰ إجابتكن إجابة ممتازة.

هزت رانية رأسها وقالت: أرجوك يا دكتور أريد أن أسمع الإجابة منك شخصياً ولا أريدها من غيرك، أما غادة فقد نظرت إلىٰ صاحبتها وشعرت أنها تتحدث بانفعال شديد وكأن شيئاً من الغيرة من عفاف قد بدا واضحاً علىٰ سلوكها. فقالت غادة:

يا حضرة الدكتور لقد سألت عفافَ عن هذا السؤال بالذات فأجابتني: هذا السؤال بالذات غير لائق. . خيل إلي أن سيادة الدكتور قد خلط بين أسئلة الامتحانات والمقابلات الصحفية!!.

هز الدكتور سراج رأسه وقال هذا رأيها. . . . فما رأيك أنت.

أجابت علىٰ الفور. كان أروع سؤال بلا شك لأنه السؤال الوحيد الذي يهتم برأيي ومشاعري الإنسانية. وما عداه من أسئلة لا يعكس سوىٰ مقدار حفظي للمادة التي درسناها.

وضع الدكتور سراج الأوراق في حقيبته وبدا يريد إغلاق مكتبه والذهاب إلىٰ بيته.... فخرج جميع الطلبة من مكتبه إحساساً مع دكتورهم الفاضل الذي يهم بالعودة.... إلا أنه همس في أذن غادة قائلاً سأتنزه قليلاً في حديقة الجامعة. ما رأيك لو نتنزه سوياً؟ ويا ليتك تنادين عفاف لتجلس معنا.. وسوف نناقش الأسئلة معاً.

أسرعت غادة لتبحث عن عفاف، أما رانية فقد استغلت خلوتها مع الدكتور ومشت معه في الممرات وبدأت تتحدث معه أحاديث متفرقة. جلس الدكتور سراج وطالباته علىٰ العشب الأخضر في حديقة الجامعة. كان يتلفت يميناً وشمالاً بادياً عليه أنه شارد الذهن.

وعادت غادة لتخبره أنها لم تجد عفاف في أي استراحة... وعلقت قائلة: يبدو أنها خرجت من الجامعة، إلا أن رانية قالت: لا أظنها تخرج الآن فهي

تنتظر امتحانها الثاني اليوم. ربما تجلس في زاوية ما وتدرس فيها.

اجتمع الأصحاب وبدأوا يتجاذبون أطراف الحديث. كانت غادة ساهمة تنظر إلىٰ البعيد... لمحت شيئاً يقترب فظنته عفاف. وقفت.. ثم تأكدت أنها عفاف.. قامت إليها مسرعة ونادتها من بعيد ملوحة بيدها: عفاف ـ عفاف. ففهمت عفاف المراد فوقفت مكانها.

اقتربت غادة من عفاف. حاولت تهدئة أنفاسها المتلاحقة... ثم ابتسمت وقالت: سألنا عنك الدنيا بأسرها.... تفتحت أمامك الرياحين... هنيئاً لك يا عفاف!!

بدا الاستغراب علىٰ وجه عفاف وسألت: ومن الذي سأل عني؟؟

ـ الدكتور سراج.

ـ وماذا يريد؟

ـ يدعوك لمشاركتنا جلستنا الرائعة علىٰ المروج الخضراء.

ـ اعتذري له بالنيابة عني. دهشت غادة لما تسمع

وقالت متسائلة:

ـ لماذا يا عفاف؟ أنت هكذا تعيشين شبه غربة!! جربي أن تكوني معنا ولو مرة واحدة. والله إني أحبك يا عفاف فلماذا تتعاملين معنا بجفاء وجفاف.

ـ وأنا والله أحبك وأتمنىٰ أن تجلسي معي ولو مرة واحدة.

ـ سأفعل غداً إن شاء الله.. بدت غادة سعيدة بهذا الاقتراح فهي تكن لزمليتها عفاف كثيراً من الاحترام والتقدير... بدأت غادة بالعودة الوئيدة إلىٰ مجموعتها الملتفة حول الدكتور سراج.. عادت ببطء وهي تكرر علىٰ نفسها إجابة عفاف... وقارنت بين كلمات عفاف الرزينة وبين الضحكات الصاخبة التي تسمعها من بعيد.. وكلما اقتربت شعرت بمزيد من الضوضاء والمرح. إلا أن الدكتور سراج رفع رأسه وقال لها: وأين عفاف؟؟ أجابته علىٰ الفور ـ رفضت الفكرة من أساسها.

أطرق الدكتور سراج رأسه وأخذ يحاور نفسه قائلاً:

ـ بقدر احترامي وتقديري لهذه الفتاة.. بقدر شعوري بأنها تحمل علىٰ غير قليل من المشاعر المضادة. أجل أحس أنها لا تحترمني ولا تعطيني أي اعتبار... لماذا؟ لماذا؟

ثم تساءل في أعماقه: ولم هذا الاهتمام بمشاعر تلك الفتاة وأنا بين عشرات الحسناوات نجلس علىٰ المروج الخضراء؟؟ كان شارداً في جلسته تلك كأنه انتبه إلىٰ نصف نكتة قالتها رانية وضحك منها الجميع. ولم يستطع أن يجاملهم بأكثر من ابتسامة باردة... لا يدري لماذا يشعر بهذا الانقباض الذي دفعه للاعتذار عن الجلسة ومحاولة العودة إلىٰ البيت.

عاد وهو يحدث نفسه: لم هذا الحزن ولم هذا الاكتئاب؟ هل لأنني شعرت بفشل الكمين الذي أعددته. أم لأنني أحسست بصفعة قوية وجهت لكبريائي عندما رفضت عفاف الجلوس معي مثل غيرها من الطالبات... إنها نسيج آخر، هذه حقيقة... لكن هذا النسيج ملون بغير قليل من الغرور والكبرياء والأنفة.

ابنة من تكون عفاف هذه؟ سترىٰ غداً من أنا وكيف يمكنني أن أقف في طريق تخرجها، وقهقه وهو يسير وحيداً، ثم تلفت يمنة ويسرة ليطمئن إلىٰ أن أحداً لم يسمعه. وتابع حديثه مع نفسه:

سوف أضع الدرجة التي تروق لي وليست الدرجة التي

تستحقها!!

مشت غادة ورانية ببطء تتحدثان عن جلستهما الفاترة مع الدكتور سراج.

قالت غادة. أو تريدين الصدق يا رانية... إنني متأكدة أن هذا الدكتور يتسلىٰ معنا ويلهو لكنه في الواقع لا يحترمنا ولا نساوي عنده مليماً واحداً، احتدت رانية وقالت: كيف؟ وهو الذي يسأل عنا ويتابع تحركاتنا! لكن ربما أن هناك خللًا ما. فنحن لم نستطع فرض أنفسنا عليه حتىٰ الآن. دهشت غادة من الكلمات التي سمعتها وقالت: وكيف يكون ذلك؟

أجابتها رانية وهي تعيد تصفيف شعرها. وتتشاغل بالنظر إلىٰ المرآة: فكّري!!. ثم التفتت إليها وقالت: نحن حتىٰ الآن لم نَدْعُهُ إلىٰ حفلة ساهرة أو إلىٰ عشاء راقص. لقد اكتفينا باللقاء هنا في الكلية!!.

أجابتها غادة بانفعال: أمجنونة أنت؟ يكفي ما وصلنا إليه إنني غير راضية أبداً عما نفعله، إنني كلما ضحكت معكم يوماً، بكيت مع نفسي أياماً، لأنني أحس أننا نسير

بلا هدف ولا غاية.

ـ كيف؟ وهو أستاذنا! إن كانت لنا معه علاقة طيبة ستثمر ثمرات عاجلة أو آجلة!

ـ أخاف أن تثمر سقوطاً آجلاً ورسوباً عاجلاً!!

ـ فكري بالكيفية التي ترينها، أما أنا فسوف أفكر بحرية تامة بعيداً عنك، إلىٰ اللقاء.

أحست رانية بالفرحة الغامرة. لقد خلا لها وجه الدكتور سراج وسوف تدعوه وحده إلىٰ العشاء الراقص، أو الحفلات الساهرة، وسوف تفكر بافتعال مناسبة عاجلة كي تدعوه بأقرب وقت قبل أن يسافر إلىٰ بلدته لقضاء إجازته كما أخبرها يوماً.

أما غادة فقد كانت علىٰ موعد مع عفاف ورانية في اليوم التالي.

وجاءت عفاف حسب الموعد، فبادرتها غادة قائلة:

ـ سامحك الله وكيف أكون بخيلة معك؟

ـ أنت لا تتحدثين معنا إلا مقتطفات، لا جلوس علىٰ الحشائش، ولا غداء مشترك، ولا ضحكات ولا مرح شباب.

ـ قد أكون مقصّرة معكن. لكنكن تعلمن أنني لا أخالط الشباب وأنتن دائماً تتعاملن مع الجنسين بالتساوي.
أجابت غادة:
ـ ولم لا تختلطين معهم مثلنا؟
ـ لأنني رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً. ضحكت رانية وقالت: إذن لم تأتين إلىٰ الجامعة ابتداء؟ الجامعة ليست للشيوخ أمثالكم! لم لا تجلسين في بيتك بعيداً عن الرجال وتنتظرين حتىٰ تؤسس كلية خاصة بالعانسات.. أقصد الآنسات؟! وضحكت....
ـ إن كنت سأنتظر ذلك يا عزيزتي، فمن هن اللواتي أنتظرهن ليحملن راية التجديد وتكون لهن عزيمة لفتح كلية خاصة بالبنات، إن لم أكن أنا وأنت وهي فمن إذن؟ وإلىٰ متىٰ سنبقىٰ علىٰ قائمة الانتظار والرحلات تقلع الواحدة تلو الأخرىٰ؟

علقت غادة قائلة: المدارس الآن في جميع مراحلها مختلطة فإذا فكرنا بنفس الطريقة فإن على كل المسلمات الجلوس في البيت والعودة إلىٰ الأمية!!
أجابتها عفاف قائلة: صدقت يا أختي، لذلك لا بد

من خروج فئة من الطالبات من أجل صيانة الأجيال وحمايتها.

تظاهرت رانية بالاقتناع وقالت: بما أنك دخلت جواً مختلطاً فأعطيه حقه. أجابتها عفاف:

ـ وما هو حقه؟

ـ أن تعاملي الناس دون إحراجهم أو جرحهم. كما تحبين أن يعاملوك!!

ـ والله إني أعاملهم والشباب منهم خاصة كما أحب أن يعاملوني فلا أكلمهم ولا أمازحهم أو أجالسهم أو أسامرهم لأني لا أريد ذلك منهم.

علقت غادة: وما موقفك من النقاش العلمي؟

ـ النقاش العلمي هو المحدود بقاعة المحاضرات أو المكتوب علىٰ الأوراق. أما في الطرقات والممرات وعلىٰ المروج الخضراء... فهذه ليست أجواء للنقاش العلمي.

فكرت غادة ثم أطرقت رأسها وقالت في نفسها: «لو كانت هذه الأماكن هي أماكن النقاش العلمي لما وصلنا إلىٰ هذا الانحدار في العلامات والذي يهددنا بالخطر»، ثم رفعت رأسها وقالت بصوت مرتفع: صدقت يا

عفاف!! أما رانية فقد نظرت إلىٰ البعيد وقالت:

ـ لكن الجلوس معهم ومناقشتهم في شتىٰ الأمور ليس فيه شيء.

ـ هذه المظلة المظلمة التي تغطي ما يجري فيها وما أراه يشبه شيئاً أكثر من شبهه لما يجري في الجحور والكهوف!!

علّقت رانية ساخرة: هذا تعقيد لا مبرر له!! احتد النقاش بين الفتيات الثلاث، ومر الدكتور سراج بهن فابتسم لهن واستأذن للحديث معهن فوجه كلامه إلىٰ عفاف قائلاً: . . .

ـ كانت إجابتك ممتازة أمس. . . شكرته عفاف بأدب ثم انسحبت بهدوء. جلس مع غادة ورانية قليلاً ثم ما لبثت غادة أن انسحبت تبعت عينا الدكتور سراج الفتاتين. . . ولم يدرِ ماذا يقول للتي تجلس بجواره. . . لقد ملّ من هذه اللقاءات المتتابعة. . . ثم بدأت رانية بالسؤال عن إجابتها في الامتحان فامتنع عن التصريح وقال ستجدين علامتك معلقة بعد أيام قلائل. . . وتذكر سلم العلامات وكيف أنه صرح بإجابة عفاف الممتازة ثم هو يضع لها علامة تليق بتصرفاتها معه لا بعلمها واجتهادها. . . أحس أن هذه خيانة للأمانة التي

يحملهـــا. فقـــرر أن يعيد قراءة ورقـــة عفـاف ويعيد تصحيحها... أما رانية فقد قالت له:

ـ عندي لك مفاجأة!!

ـ وما هي؟

ـ أنت مدعو إلىٰ حفلة عيد ميلادي بعد يومين، سأعمل حفلاً ساهراً ليلة الأربعاء وأعرفك علىٰ أهلي، دقق في عينها وفهم شيئاً ما من نظراتها لم يستطع التصريح به ثم قال:

ـ سأفكر بالأمر. وبعدها نظر إلىٰ ساعته ووقف قائماً وقال:

أمـا الآن فأنـا علىٰ موعد هام جداً... أسرع إلىٰ سيارته. حاول أن يقودها فأحس أن هناك ثقباً في العجل الأمامي... خرج من سيارته ووقف حائراً... قامت رانية من مكانها وجاءت لتسأله ما به فأخبرها. فعرضت عليه أن تأخذه معها في سيارتها.

وأقبلت بحماسة شديدة ففتحت باب سيارتها ورحبت بالـدكتـور أيما ترحيب. وبعد أن اطمأنت علىٰ ركوبه بجـوارها بدأت بقيادة السيارة وهي تسترق النظر. أما الدكتور سراج فقد بدا عليه الارتباك فالتفتت إليه ومدت

يدها إلىٰ مسجل السيارة وقالت سأسمعك شريطي المفضل الذي جمعت عليه أعذب الألحان، أجابها الدكتور سراج بلهجة من يشعر بالملل:

هات ما عندك.

فرحت لذلك وفتحت الشريط ورفعت صوته وبدأت تردد مع القائل:

بفكر باللي ناسيني
وبنسىٰ اللي فاكرني
وأنسىٰ اللي شاريني
وأدور عاللي بايعني
عاللي بايعني

لاحظ الدكتور سراج شدة انفعال رانية مع الأغنية فابتسم ونظر إليها قائلاً:

ـ لاشك أنها أغنية جميلة تعكس مشاعر كثير من الناس.

وبدأ يصف لها الشوارع والمنعطفات التي يريد أن يسلكها كي يصل إلى الموقع الذي ينشده. وطلب منها أن تقف به عند أقرب نقطة علىٰ الشارع الرئيسي إلا أنها

تطوعت لتوصيله إلىٰ أقرب عتبة يريدها. ولما وصل إليها شكرها وانصرف.

أعادت رانية سماع الشريط وهي تحلق وتتخيل الحب والحبيب والوصل والهجر و الدموع... ترددت في مصارحة نفسها عن حقيقة مشاعرها.. ثم أعلنت لنفسها قائلة ما بيني وبين الدكتور سراج أكثر من صداقة... إنني أحبه... ولكن!!

استمرت في قيادتها لسيارتها وهي تشعر بسعادة غامرة وحياة دافئة.. ثم استوقفتها إعلانات أحد أحدث محلات الأزياء. قررت أن تدخل ذاك المحل وتتأمل ما فيه لتشتري فستاناً مناسباً لحفلة عيد ميلادها... وكلما رأت فستاناً تخيلت كيف ستكون مشاعر الدكتور سراج عندما يراها فيه.

بدأت تزدحم بذاكرتها عبارات الدكتور سراج في وصفه لبعض الأشياء والأمور فاستخلصت صورة عما يمكن أن يكون عليه ذوق الدكتور سراج...

وبعد طول تردد قررت أن تشتري فستاناً رائعاً فاخراً

يشبه فساتين الزفاف. . نظرت للفستان طويلاً. وقالت:

هذا الـذي أريد. هذا عنـدما يراه الدكتور سراج سيتمنىٰ أن يصبح عريساً!!. . ابتسمت واشترت الفستان وخرجت به وهي تكاد تطير من الفرح.

* * *

أما الدكتور فقد عاد بعد طول عناء إلىٰ غرفته وأغلق الباب علىٰ نفسه وبدأ يحاسبها ويحاورها. قرر أن يعيد تصحيح ورقة عفاف. تذوق معنىٰ إجابة السؤال الأخير:

(تحـدث عن فلسفة الحب عند الغرب وما تعليلك الشخصي عليها). . . فأعاد قراءة إجابة عفاف:

«إن أسمىٰ وأقوىٰ عاطفة إنسانية هي الحب. وإن أروع حب وأطهر حب. وأعمق حب. هو الحب الذي لا يتوقف إلا مع توقف الأنفاس. الحب الذي لا ينطفىء إلا بانطفاء شعلة الحياة. . . . إن هذا الحب هو حب الأم لصغارها. إنها عاطفة الأمومة.

فإن كان الفيلسوف الغربي «فروم» يعتقد أن الحب حصيلة أربعة مكونات هي:

١ـ الرعاية.
٢ـ الشعور بالمسؤولية.
٣ـ الاحترام.
٤ـ المعرفة.

فأنا اعتقد أولاً بأن الأم أكثر الناس رعاية لشؤون أطفالها وأن كل إنسان «راع» قد يتكاسل أو يغفل إلا الأم فإن رعايتها لصغارها ممتدة امتداد أنفاسها.

وثانياً. فإن الشعور بالمسؤولية عندها هو إحساس عميق الجذور بعيد الأهداف. إنها لا تفكر ولا تطالب بحقوق مقابل أداء مسؤوليات، بل إنها لتقوم بكل مسؤولياتها راضية سعيدة لأن إحساسها ينبثق من نفس طاهرة متفانية. بخلاف إحساس غيرها الذي يكاد يحول المسؤوليات إلىٰ واجبات مفروضة من الخارج عليها أو إن شئت فقل: إن المسؤوليات أصبحت في ذهن الكثيرين مرادفة للأوامر العسكرية».

وثالثاً. بالنسبة للاحترام. وهو القدرة علىٰ رؤية الإنسان علىٰ حقيقته والتعرف علىٰ وجوده المتميز. ثم الاهتمام بتوفير الفرص لينمو ويترعرع وينضج. ولا أخالي أرىٰ أحداً يرىٰ

سواه نظير رؤية الأم لصغارها فإنها لا تتوقف عند توفير الفرص لنموهم ونضجهم. بل إنها لتطرق الأبواب لتفتح أمامهم آفاق الفرص هذه. وإن كان الاحترام في العلاقات الإنسانية عامة يخضع للمد والجزر. فإن احترام الأم لصغارها يزداد مع الأيام فهي تحس بوجود طفلها وبأبعادها الحسية والمعنوية. وهي ترىٰ من خلال شخصه نقاء وصفاء فطرة الله التي فطر الناس عليها.

أما من حيث المعرفة فإني أكاد أجزم بأن الأم أكثر الناس معرفة بصغيرها وتكاد تكون أعرف به من نفسه.

وإني أرىٰ. أن «حب الأم لصغارها» لهو جزء من الرحمة الإلهية المبثوثة في قلوب الإنسانية وإنها لعاطفة وعمل وأداء دور ووقفة إنسانية لا يمكن للمجتمعات أن تقوم دونها... وأن جهابذة الفلاسفة و المفكرين ليقلبون الحق باطلاً والباطل حقاً في غالب أقوالهم. إلا أنهم أمام حقيقة الأمومة الناصعة لتجف أقلامهم وتسكت ألسنتهم..

كرر الدكتور سراج قراءة هذه الإجابة. وكل مرة كان يخرج بقرار مختلف في تقدير العلامة ويشعر مشاعر متباينة... كان يشعر بنشوة وراحة نفسية وصفاء كلما

قرأ هذه الإجابة... ويقول في نفسه المعنىٰ سليم.

الإجابة ممتازة... إلا أن صاحبتها هي التي جعلتني أتردد في وضع العلامة... وتساءل. لو أجابت هذه الإجابة رانية أو غادة أو... ماذا يمكن أن أقيمها؟! أحس أنها تستحق الدرجة النهائية دون أن تنقص شيئاً.... أمسك ورقة عفاف وبدأ يخاطبها قائلاً: إنك تخالفينني الرأي دائماً، لكنك علىٰ صواب لا يمكنني تجاوزه أو تجاهله. بل إن صوابك ليصدع صوابي ويشققه. إنك أهل للتفوق يا عفاف.

عفاف... أكاد أجزم أنك أنت الأستاذة وأنا الطالب!!

عفاف... مبارك... هذه علامتك كاملة... وسجلها.

في مساء الثلاثاء... استعد الدكتور سراج لإجابة دعوة رانية... جهز نفسه وملابسه وسيارته... وقف أمام المرآة وبدأ ينظم هندامه ويتساءل في نفسه... ما هي الأجواء التي سأدخلها؟ وأنا ذاهب بأية صفة سأذهب؟... من يعرفني؟! ومن سيستقبلني؟!.. عشرات الأسئلة ازدحمت في رأسه... كان يستبعد فكرة

الذهاب أحيانا ويقربها أحيانا أخرىٰ.

تصارعت أفكاره وأحاسيسه ومبادئه بدت كأنها موجات تقذف به يميناً ويساراً. . فأخذ يسير في غرفته ويدور حول نفسه استجابة لإحساس بالصداع ألمَّ به.

وقف بجانب أحد الرفوف. . . مد يده وتناول مظروفاً فتحه وقرأه إنها دعوة أخته «أم سامر» لقضاء الإجازة عندهم في بلدته الحبيبة «ذاتا». . . تهللت أساريره ومد نظره عبر النافذة وأخذ يخاطب بلدته الحبيبة «ذاتا» كم أنا مشتاق لك. سأجد راحتي بين حدائقك وحقولك، إني قادم إليك يا ذاتا. في المستقبل القريب أما الآن!!

نظر إلىٰ ساعته وقال: لقد تأخرت. . . وقف أمام المرآة ونظم هندامه وتناول مفتاح سيارته وخرج.

استقبلت رانية جميع المدعوين والمهنئين وهي شاردة الذهن وكلما سمعت طرق باب تخرج مسرعة وتفتحه بلهفة ثم تردد كلمات الترحيب ببرود شديد. . . حتىٰ إن أحد الأصدقاء القدامىٰ قال لها: هل أدخل أم أنني لست مدعواً؟

ـ لا عفواً تفضل. تفضل... ومدت عنقها تبحث علها تجد أحداً خلفه فخاب أملها.

جلست رانية بين المـدعـوين شاردة الذهن. حائرة مضـطربـة قلقة تحرك أطرافها حركات عشوائية تلعب بخصلات شعرها مرة وتضع قدماً بجانب قدم مرة أو ترفع واحدة فوق الأخرىٰ... مما لفت نظر كثير من الحاضرات وأطلقن بعض الألسنة ببضعة تعليقات!!

ولا تفتأ تتفحص ساعتها... وقفت وقررت أن تفعل شيئـاً ثم جلست. ثم وقفت وسارت نحو الباب... وقالت في نفسها آه لو أستطيع السير إليك يا دكتور... ثم سمعت وقع خطىٰ قادمة... لقد طرق بابها فتحته بلهفة شديدة وارتفع صوتها بالترحيب الشديد... سلمت عليه... اقتربت منه كادت تعانقه... ثم شدت يده وسارت به نحو صالة الاستقبال قدمته لوالديها ولجميع المدعوين. جلست بجواره وسط المدعوين. وبدت تمازحه وتضاحكه. وتسأله فيجيبها ببرود وشرود.

لاحظ الدكتور سراج أن أعين المدعوين معقودة عليه. خاصة تلك المرأة البدينة التي كانت تجلس في زاوية الصالة

وسط حلقة من النساء والرجال. . كانت تنظر إليه ثم تُسرّ لمن حولها حديثاً فترتفع أصوات الجميع بالضحكات.

التقت نظرات الدكتور سراج مع نظراتها عدة مرات. تساءل في نفسه: لماذا تنظر إلي هكذا؟ نظر إلىٰ بدلته الحديثة الجديدة، فاتهمها قائلًا: يبدو أنهم عرفوا أنك رخيصة الثمن رديئة الصنع باهتة الألوان. . . ولكن لا لقد دفعت عليها مبلغاً وقدره. . . ثم نظر إلىٰ ساعته. . . ولأول مرة لم يفكر بدقة توقيتها قدر تفكيره بمستوىٰ أناقتها. . . لم يشعر الدكتور سراج أنه «رجعي» و«بلدي» قدر شعوره ذلك اليوم.

رفع الدكتور سراج رأسه من أجل سؤال سمعه من رانية؟!

أين أنت؟؟

- ابتسم ابتسامة صفراء وقال أنا هنا. ولكن أين بقية الزميلات. . . غادة وعبير. وهالة. . . ثم سكت قليلاً وقال بعمق وعفاف!!

أجابت رانية بامتعاض.

- ألا يكفي أن أكون أنا هنا!!

ـ يكفي ويكفي جداً.

قطعت حديثها تلك المرأة البدينة وجاءت لتسلم عليها وقالت لها:

ـ منظركما رائع . . . رائع جداً لا ينقصه سوىٰ «المأذون»

بدا علىٰ رانية شيء من الخجل . . . وأما الدكتور سراج فقد قال لها:

ـ من هذه الناحية . . . أنا لست في عصر السرعة!!.

ضحكت المرأة وانصرفت.

حاول الدكتور سراج أن ينسحب إلا أن رانية قالت له: لم يبدأ الحفل بعد!!.

ـ ومتىٰ سيبدأ؟

ـ بعد قليل . . .

أصدرت أوامرها. فأطفئت الأنوار ودارت الكؤوس وبدأت الموسيقىٰ . . . مدت رانية يدها للدكتور سراج . . . تريد أن تراقصه . . . فرفض وكتم كثيراً من انفعالاته المتمردة!!

امتلأ الجو دخاناً وروائح متباينة . . . أخذ الدكتور سراج يكح كحات متتابعة . . . . أحس أن العيون عليه

عقدت وأنفاسه عليه أحصيت وسمع تعليقاً بعيداً. . .
معلش يا دكتور لأنها أول مرة وبعد ذلك تهون عليك.

إلا أن الدكتور سراج اقترب من الاختناق. . . وقرر الخروج من القاعة. .

خرجت رانية معه ووقفت بجوار الباب تحدثه.
ـ يمكن أن نجلس هنا قليلاً.
ـ لقد جلست معكم ساعة ونصف ولولا مكانتك عندي ما فكرت في ذلك. . عندي أشغال كثيرة.
ـ مهمة إلىٰ هذه الدرجة؟؟ قالتها بدلال بالغ.
ـ أجل. . . غداً سأذهب إلىٰ الجامعة صباحاً لإعلان النتائج ثم أسافر فوراً إلىٰ قريتي.
شدت رانية يده وقالت وهي تتلوىٰ:
دكتور. . . أرجوك أخبرني بنتيجتي الآن.
ـ لا. لا يمكنني ذلك. . أقصد لا أذكر بالضبط.
ثم استأذن وخرج مسرعاً.

لم يصدق أذنيه عندما سمع إغلاق الباب خلفه. . شعر أنه هرب من كمين، يريد أن يسير في الشارع ركضاً ويستنشق هواء نقياً. لقد آذاه الهواء الملوث في

الداخل . . . وقال في نفسه :

عشت في أمريكا سنوات فلم أستنشق مثل هذا الهواء الملوث .

ولكن ما الذي دفعني إلىٰ هذا الهواء؟ ألا يمكن أن يسبب لي مرضاً مزمناً وحساسية دائمة . . . إن نوبتي شديدة ويجب أن أعود إلىٰ بيتي .

لكن ما الذي رمىٰ بي في هذا الجو الموبوء . . . إنها الصداقة . . . وسأل نفسه . . . ترىٰ هل أنا أول صديق يؤذيه مثل هذا التلوث؟؟ أم آخر صديق!! ثم قاد سيارته غير آبه بما ترك وراءه وقال :

كم أنت مسكينة أيتها الصداقة!! وكم أنت غبية أيتها الصديقة!!

❊ ❊ ❊ ❊ ❊ ❊

وفي صبيحة اليوم التالي . . قامت رانية مسرعة وذهبت إلىٰ الجامعة متلهفة تريد أن تصطاد الدكتور سراج قبل أن يسافر إلىٰ قريته بحجة أنها تريد أن تطمئن علىٰ صحته فقد سبب لها مرضه قلقاً طوال الليل .

وما إن وقفت سيارة رانية حتىٰ رأت الدكتور سراج يسير بسيارته مسرعاً خارجاً من الجامعة. . . حاولت أن تناديه إلا أنها لم تفلح شعرت بخسارة فادحة فهي لن تراه إلا بعد انتهاء الإجازة. . . نزلت من سيارتها ومشت خطوات فوجدت زميلتها غادة تقول لها:

لقد أعلنت نتائج مادة الفلسفة يا رانية.

ذهبت رانية متلهفة لتقرأ نتيجتها.

ـ قرأت نتيجتها عدة مرات. .. تسمرت في مكانها لم تستطع الحراك. . .

جاءتها غادة مواسية وقالت. . .

ـ ما زالت الفرصة أمامك لتعويض ما سبق.

قالت رانية بانفعال:ـ وكيف؟ كيف؟ إنه الصفر الجامعي.

ـ يا إلهي ٣٥٪ فقط.

ـ أجل لا غير.

وأنت يا غادة كم علامتك؟ أجابتها بحزن: ستون بالمائة.

ـ هنيئاً لك لقد نجحت. أجابتها غادة: لا. إن التي نجحت بتفوق مشرف هي عفاف.

عفاف حصلت علىٰ ٩٥٪ إنها والله تستحق ذلك. .
سأذهب لتهنئتها استقبلتها غادة من بعيد وقالت: مبارك يا عفاف.
مبارك يا أختي. . . ثم سكتت وقالت:
ـ بناء علىٰ هذه النتيجة ستفارقينا يا عفاف وتتخرجي هذا الفصل من الجامعة.
ـ إن شاء الله.
ـ عموماً يا عزيزتي. . . عندي لك مفاجأة. . .
ـ وما هي؟
ـ أنت تعلمين أنني ورانية مسؤولتان عن صحيفة الكلية بإشراف الدكتور سراج.
ـ وما هي المفاجأة.
ـ الدكتور سراج وضع أسئلة لمقابلة صحفية نجريها مع الأولىٰ لهذه الدفعة وأخالك أنت.

لكن سوف أتأكد من دائرة التسجيل. فهل لك أن تصاحبيني. . ذهبت غادة وعفاف إلىٰ دائرة التسجيل. . . نظرت غادة إلى السيارات المزدحمة هناك فرأت سيارة الدكتور سراج. . . وتوقعت أن تراه. . إلا أن عفاف اشترطت عليها عدم محادثة الدكتور سراج ودخلت الفتاتان

البـاب. . وبجوار ذلك الباب الزجاجي. . كان يقف الدكتور سراج ويشرف علىٰ تعليق إعلانات الأوائل والمتفوقين.

الأولىٰ في القسم. . . . . عفاف عبدالله.

الأولىٰ في الكلية. . . . . . . عفاف عبدالله.

قرأت عفاف هذه الإعلانات. . . ونظرت باستياء إلىٰ الدكتور سراج الذي أقبل عليها مهنئاً.

قال: مبارك مبارك يا عفاف. . . لقد حصلت علىٰ تفوق مشرف لم يحصل عليه طالب منذ خمسة أعوام. ثم التفت إلىٰ غادة وقال. . . انتظري قليلًا ريثما أعطيك أسئلة المقابلة الصحفية.

مدت غادة يدها وصافحت عفاف بحرارة وباركت لها بهذه النتيجة المشرفة. . . شعرت عفاف بالفرحة الغامرة والسعادة الرائعة لكنها لم تستطع أن تعبر عن مشاعرها بأكثر من تهلل وجهها فرحاً وحبوراً وقالت لزميلتها غادة:

أريد أن أزف البشرىٰ لأهلي اسمحي لي لا أحب انتظار الدكتور سراج ريثما يهيء الورقة.

حاولت غادة إقناعها بالمكوث معها قليلًا إلا أنها لم

تفلح خرج الدكتور سراج مسرعاً أقبل علىٰ غادة وسألها: أين عفاف؟

ـ ذهبت إلىٰ بيتها، فأطرق قائلاً:

ـ ألم تعرف أنها ستجيب علىٰ هذه الأسئلة؟

ـ أجل لذلك اتفقنا علىٰ مكان وزمان المقابلة.

فالمكان. مصلىٰ الطالبات. والزمان بعد ساعتين.

نظر الدكتور سراج إلىٰ البعيد وقال حسناً. بعد ثلاث ساعات تقريباً يمكنك تسليمي ورقة الإجابة للأهمية. فأنت تعلمين أن العطلة تبدأ غداً. وأنا حريص جداً على الحصول علىٰ إجابتها قبل الإجازة.

وفي الموعد المحدد. ذهبت عفاف إلىٰ مصلىٰ الطالبات. وجلست تنتظر زميلتها غادة وقالت في نفسها:

ترىٰ ما هي هذه الأسئلة؟ وما هدفها؟ ألم يكتف الدكتور سراج بالأسئلة بعد. إني أراه يهتم بي اهتماماً خاصاً!!

ثم اعتدلت في جلستها وقاومت وساوسها. سمعت خطوات قادمة نحوها نظرت فإذا هي زميلتها غادة ـ ابتسمت غادة وقالت:

هل لديك مانع ببدء الإجابة؟

- تفضلي يا عزيزتي... أخرجت غادة من حقيبتها ورقة الأسئلة وقالت:

عفاف عبدالله من أنت؟ عرّفي نفسك!

قالت عفاف بثقة: أنا فتاة مسلمة... هذه هويتي.

فوجئت غادة بالإجابة... وقالت أقصد... من أبوك؟ من ذويك؟ وأردفت قائلة: انتسبي لقيس أو تميم.

قالت عفاف: أما والدي رحمه الله. فأنا لا أعرفه..

فقد خرجت إلىٰ الدنيا بعد وفاته بشهور قليلة... وأما والدتي فهي أفضل وأروع وأعظم إنسانة عرفتها في حياتي. هي الأم المجاهدة والمرأة الأمينة.

س - حضرة الأخت الكريمة، ما هي أهم المبادىء والأسس التي جعلتك تحصلين علىٰ هذه الدرجة المشرفة؟

- أولاً. إنني أجدد عهدي مع الله بأنني لا أتعلم إلا من أجل تسلم مفاتيح قيادة البشرية الحائرة. فأنا واحدة من الركب المبارك الذي يحذوه الأمل بقيادة هذه البشرية المنهكة..

وأسأل الله دائماً أن يكون عملي خالصاً لوجهه الكريم

وأن يهديني لأقرب من هذا رشداً.

تعلقي بخالقي وبارئي جعلني أرتفع عما يشغل غيري من الشابات.. فأنا أبحث دوما عن الأفضل والأجمل والأحسن والأرفع والأصوب والأدق.. محاولة العيش في ظل الآيات الكريمة والوصايا النبوية العظيمة. بدا علىٰ وجه غادة غير قليل من الدهشة والاستغراب... وقالت: هل لك أن تضربي لي مثالاً؟

- خذي مثلاً قول تعالىٰ: ﴿*ليبلوكم أيكم أحسن عملاً*﴾.

فأنا أفهمها أثناء كوني طالبة... فإن عملي كما تعلمين حدد في جواز سفري بأني طالبة. فأنا أحاول السير لأكون الطالبة الأفضل والأمثل والأحسن.

ابتسمت غادة وقالت:... شيء جميل ينقلني إلىٰ السؤال التالي مباشرة:

- عفاف عبدالله. اسم اقترن بالكبرياء والاستعلاء. وربما الغرور وعدم المجاملة. وإن أردت الصدق. كثير من الطالبات يصفنك بأنك صائمة عن الكلام فلا كلام حسن ولا أحسن. ما رأيك؟

ـ قد تبـدو تصرفاتي هكذا . . . والله يشهد أنني لا أستعلي على الناس بل إن استعلائي علىٰ المواقف . فأنا أعتقـد جازمـة أن هنـاك بونـاً شاسعاً بين «التواضع» و«الوضاعة» إنها اتهامات أستطيع القول بأن سببها هذا اللَّبْس الذي حدث عند غيري .

فقد لا يفرقن بين هذه المعاني الوضيعة وبين ما أشعر به وأعيشه من معاني الإسلام الرفيعة . . . إنها يا عزيزتي مشاعر العزة والاستعلاء .

ـ حكمتك . . . لو تكرمتِ .

ـ متعلقة بالإجابة السابقة فأنا أردد قول أحد الصالحين :

ومما زادني شرفاً وتيهاً

وكِـدْتُ بأخمصي أطـأُ الثُريّاً

دخولي تحتَ قولك «يا عبادي»

وأَنْ صيّرتَ أحمـدَ لي نبيّاً

بدا على غادة التأثر الشديد بهذه الأبيات . وبعد لحظات صمت قالت :

ـ هناك سؤال شخصي جداً، أرجو الإجابة عليه . . .

هزت رأسها عفاف وقالت: هات.

ـ هل تفكرين بالزواج؟

ـ إنها ليست قضية تفكير أو عدم تفكير. إن الزواج سنة من سنن الله العظيمة وموقفي منه هو موقفي من هذه السنن فأنا راضية بسنن الله. أعيش في ظل ناموسها العظيم.

ابتسمت غادة وقالت:

ـ من هو فارس أحلامك؟

ـ لم أحدد سماته ولم ولن أفكر أو أبحث عن أفضل من الشخصية التي أختارها لي رسول الله ﷺ فهو الإنسان الذي أرضىٰ دينه وخلقه وهل يمكن لفتاة ضعيفة مثلي أن تضع مواصفات أرقىٰ وأنقىٰ وأعظم من هذه؟!!

ـ ما رأيك بالمساواة بين المرأة والرجل؟

ـ إن زعم المساواة العصري هذا باطل فاشل من أساسه . . .

إن الحكيم العليم قد ساوىٰ في الحقوق والواجبات والفرائض والعقوبات.

وإن المجتمع العصري الذي يتشدق بالمساواة ليبيح للشباب أن يلهو كيفما شاء ويفعل ما يشاء وفي المقابل فإنه يؤاخذ الفتاة، وإن الفتاة المنحرفة لتجر العار علىٰ أسرتها بأكملها. بينما الشاب المنحرف تذلل له السبل وتيسر أمامه العقبات، وأنا أتمنىٰ أن ننظر ونحاكم بشرع الله. فبدل أن نطالب بمساواة الليل بالنهار.. نفكر بأن الأعمال السيئة التي سترفع بالليل سيكون لها نفس الإثم فيما لو رفعت بالنهار. وإن الآثم والآثمة في العقوبة سواء فالإثم هو الإثم، والزانية تشاطر الزاني العقوبة... هذه هي المساواة الحقيقية يا عزيزتي.

«طرقت غادة رأسها وفكرت» فيما ترمي إليه عبارات عفاف هذه أجل إن الناس لا ينظرون لها أو لرانية مثل نظراتهم للدكتور سراج مثلاً!!

ثم رفعت رأسها وقالت سؤال تابع للسؤال السابق وهذا هو السؤال الأخير:

ـ في رأيك هل حصلت المرأة على حقوقها؟؟

ـ أعتقد أنها لم تحصل علىٰ حقوقها ولن تحصل عليها إلا يوم أن تعيش مبادىء الإسلام كاملة... فالمجتمع

الذي يحارب من أجل حقوق المرأة ـ لو نظرت له نظرة دقيقة فاحصة ـ لوجدت أن المرأة تحاكم فيه لمقياس واحد هو جمالها فقط. قولي لي أنت إن كانت هناك فتاة بها شيء يسير من التشوه هل ينظر إليها أحد؟!.. أليس هذا التشوه اليسير قد يجعلها منبوذة معقدة كأنها ليست إنساناً. إن المجتمع الذي تجد فيه الصماء والعوراء والقعيدة والسمينة والسمراء حقوقها هو المجتمع الذي يعطي المرأة حقها... وإنه لن يكون إلا يوم أن ننظر للإنسان بمقياس إلهي، فإنه لا ينظر إلىٰ صورنا وأشكالنا بل ينظر إلىٰ قلوبنا وأفعالنا... فعندما ينظر إلىٰ قلب المرأة وفعلها فستكون قد أخذت الكثير من حقوقها.

شكرت غادة زميلتها عفاف علىٰ هذه الإجابات. جمعت أوراقها وكتبت العبارة التالية بعد المقابلة:

**(مقابلة قلبت قلبي... وأعادت شيئاً من الصواب إليّ
وقد يكون لها ثمار في تغيير مجرىٰ حياتي)**

التوقيع

غادة

أمـا عفاف فقد نظرت طويلاً إلىٰ غادة وهي ترتب أوراقها وتدون ملاحظاتها ثم سلمت عليها وطلبت منها عنوانها ووعدتها بزيارات قادمة.

ودّعت غادة عفاف وقد أحست بأنها خسرت الكثير الكثير طوال الأيام السابقة التي لم تكن فيها علىٰ علاقة وثيقة مع عفاف، شعرت بكثير من الجميل تجاه الدكتور سراج الذي انتدبها لهذه المقابلة... ثم حملت أوراقها وتعليقاتها وسلمتها للدكتور سراج الذي أخذها بسرعة ودسها في حقيبته قائلاً:

بعد الإجازة سأعلق هذه المقابلة. فانتظريها... فأنا الآن أستعد للسفر. إلىٰ اللقاء.

«الفصل الثاني»

ودّع الدكتور سراج مكتبه والممرات الموصلة إليه.. والحدائق التي كان يتطلع إليها منه.. كان كلما مر بموقع تذكر جملة أحداث حصلت في أزمنة متفاوتة.. لكنه كان يسرع الخطىٰ وكأنه يريد الانسلاخ من تلك الذكريات والمـواقف والضـوضاء والصخب. وصراع التناقضات. وأنين المبادىء.

كان مقبـلاً بكل أحاسيسه علىٰ بلدته بل إن جميع جوارحه لتسبقه إلىٰ هناك. ولربما أحس بعينيه تهتفان: ...طوبىٰ لنا سنرىٰ الطبيعة الخلابة. وهمست أذناه: هنيئاً لنا سنسمع تغريد العصافير، وهديل الحمام، وهدير الماء، وسنطرب لهذه الأصوات التي ترعرعنا في رياضها.

وربما سمع قلبه يزغرد طرباً وفرحاً ويقول:

هنـاك سأطـمئن وأرتـاح... هنـاك سأعـرف السكينة... تلك كانت تأملاته عندما كان يقود سيارته متجهاً إلىٰ بلدته. ويفكر في أرضها وسمائها ومائها وأهلها وأحبائه جميعاً. كان شوقه إليها يطوي بعده عنها....

اقترب من مشارفها. . . وصل مع غروب الشمس. . . رقص قلبه وردد لسانه قول الشاعر. . .

هاك ملهىٰ الصبىٰ فيا قلب

لمسلم ذكرياتي علىٰ ضفاف الوادي

وقبل أن تدوس سيارته الطريق الترابي. . . وقف علىٰ مشارف بلدته ليرىٰ لحظات الغروب. . . . وقف ونظر بعيداً. ثم تنهد وقال من أعماقه: . . . سبحان الله. سبحان الله الخلاق العليم، ما أجمل غروب الشمس، وما أجمل الأشعة الذهبية وهي تعانق حقول القمح الذهبية. . . كم أبعدتك الحضارة يا سراج عن جمال الطبيعة الأخاذ!!.

أخرج عدسته من سيارته والتقط صوراً كاد يجزم أنها ستكون أجمل من جميع بطاقات العيد التي يحتفظ بها.

ترك مشاعره تنساب من بين أضلعه تعبت قدماه فجلس القرفصاء. . . وسرح بخياله. . . وتذكر.

عندما كنت صغيراً كنا أنا واخوتي نظن أن نهاية العالم

هنا . علىٰ أطراف بلدتنا وعندما نصل إلىٰ هذه البقعة نعتقد أننا طفنا حول العالم . . كان عالمنا صغيراً ووديعاً وبريئاً .

مد يده وتحسس أذنه التي كانت تشدها أمه . . . وكأنه يسمع صوتها . . وهي تقول :

إلىٰ متىٰ اللهو يا سراج؟؟ . . إلىٰ متىٰ ستبقىٰ تمضي بعيداً وتعود ملطخاً بالطين؟! ذرف دمعتين ساخنتين، وتنهد من أعماقه وقال : رحمك الله يا أمي ، سراج ما زال يذهب إلىٰ أطراف دنياه يلهو ويعود ملطخاً بالطين؟؟! فأين يدك تشد هذه الأذن علها تعيد شيئاً من الصواب إلىٰ صاحبها؟! . . . .

ووقف مهتماً فقد سمع ضحكات بعيدة وقهقهات عالية ، تلفت حوله ثم وقف في منتصف الطريق الترابي ليستطلع الخبر . . . يا الله لقد نسيت أهازيج المساء وفرحة الفلاحين بالعودة مع الغروب إلىٰ بيوتهم . ولمح سيارة مليئة بالخضار قادمة من بعيد وقد جلس بعض العمال فوق صناديق الخضار والفاكهة يتسامرون وينشدون ويضحكون . . . .

اقتربت منه السيارة شيئاً فشيئاً. دقق في وجه سائقها وهتف بصوت مرتفع: نبيل!!.. نبيل!! وأشار إليه طالباً منه الوقوف.

نظر السائق نبيل إلىٰ شكل «*الغريب القادم*» وتأمله جيداً وفتح باب سيارته ببطء وهو يتأمل الشخص الذي أمامه ويحاول تذكر معالم وجهه ثم قال:

غير معقول!!. أكاد لا أصدق.! سراج!.. سراج عمر! أين، أين، أنت يا أخي؟ وعانقه بحرارة.. ثم قال له:

- تريد بيت أبي سرور أليس كذلك؟.
- بلىٰ.

يشرفني أن أدعـوك للركوب معنا. فأنا لا أنصحك بدخول الطريق الترابي الرطب في سيارتك الصغيرة هذه.

شكر الدكتور سراج صديق طفولته «نبيل» وذهب ليضع سيارته الصغيرة في مكان آمن ثم أخرج ما بها وأغلقها واستقل هو ونبيل وبقية العمال سيارة الخضار... وبدأ يتجاذب الحديث مع صديقه القديم نبيل. سأله عن

أخباره وأخبار الناس والقرية والمجتمع عندهم.

ـ بعـد ساعـات قليلة ستصـل قريتـك بإذن الله. وستلمس بنفسك مقدار تغيرها.. وبدأ سراج يسأل عن حيهم القديم والمدرسة التي درسوا فيها سوياً.

ـ تلك الأحياء أصبحت أطلالاً دارسة يا صديقي.

وصل الدكتور سراج مع صديقه نبيل إلىٰ بيت أخته أم سرور الساعة العاشرة ليلاً... لم يكد يصدق نفسه فكل ما في القرية يشعره أن الجميع في سبات عميق وأن الساعة بالنسبة لدنياهم هي الثانية بعد منتصف الليل بالنسبة لدنياه هو.

خرج السيد أبو سرور من غرفته لاستقبال الضيف العزيز. رحب به وشكر السيد نبيل الذي أرهق نفسه في إيصال زميله. وقال له مستغرباً:

ـ وماذا فعلت بالعمّال الذين كانوا معك؟

ـ أرسلتهم في سيارة أخرىٰ... ولم يبق معي سوىٰ حمولة السيارة التي يجب أن تصل إلىٰ السوق قبل الفجر.

ودع الدكتور سراج صديق طفولته نبيل واعداً إياه بزيارة

قريبة لإحساسه العميق أن صداقتهما ما زالت معقودة وإن اختلفت بهما الديار والظروف .

تأمل البيت الذي ولد فيه وترعرع . سأل عن كل معارفه هناك وأساتذته وزملائه . . . كان كلما تأمل ركناً تذكر شخصاً .

ثم طرح سؤالاً وبدا عليه الاهتمام الشديد بالإجابات . . . .

ربما قاوم دموعاً لمعرفة بعض الأخبار الحزينة . . . أو طار فرحاً لمعرفة بعض الأخبار السارة لأبناء بلدته .

حاول أن يأخذ شيئاً من الراحة . إلا أن سروراً الصغير كان يطوف حول خاله يلعب بأشيائه ويطرح أسئلته البريئة . أما سارة الصغيرة فقد لاذت بثوب والدتها ترمق من بعيد حركات خالها وكلماته وانفعالات سرور وحركاته .

بعد أن تناول الجميع العشاء . . . استأذن الدكتور سراج ودخل الغرفة المهيأة له . بدّل ملابسه واسترخىٰ علىٰ فراشه . . . .

وبدا مصغياً للأصوات من حوله . . . ذاك نقيق

ضفادع يأتيني من بعيد. . . من يوقف لي هذا الصوت كي أنام!!. بل كيف ألغي هذا الصوت. . هل أفتح المذياع. وبدأ يبحث في الغرفة عن مذياع صغير. . . إلا أنه توقف وارتعد من الأصوات الخارجية ـ ظنها أشياء غير طبيعية وعاد ليحدث نفسه.

أنسيت يا سراج عواء الذئاب ونباح الكلاب ليلاً ثم مشىٰ خطوات نحو النافذة وركز نظره من خلالها. . . وبدأ يتأمل.

لقد عادت الطيور إلىٰ أوكارها. وعادت الأرانب إلىٰ جحورها، وعاد كل إنسان إلىٰ بيته وعُشّه وسكنه، وبقيت الذئاب والكلاب مشردة خارج دائرة السكينة والدفء. . . . فلم تسكن يا سراج لأسرة وعش وبيت شأنك في ذلك شأن بقية الكائنات. . . . لِمَ يا سراج ما زلت وحيداً فريداً تصول وتجول كل ليلة شأنك في ذلك شأن. . . ! وكتم خبر نفسه عن نفسه. . .

نسي أنه يريد أن ينام فقد هجمت عليه الأفكار من كل حدب وصوب. . . مشىٰ نحو النور ومد يده لإشعاله. . . وجلس يفكر ويتأمل الأشياء من حوله. . .

فتح حقيبته الملقاة جانباً.

قلّب أوراقه وفتح الملف الخاص بمجلة الحائط فتناثرت بعض الصور من بين الأوراق... جمعها بسرعة ووضعها في مكان آمن وكأنها أشياء مخجلة. ثم قلب أوراق الملف. وأخرج الأوراق التي سلمته إياها غادة... بحث بلهفة عن صورة الفتاة التي أجريت معها المقابلة فهذا أمر بديهي في مثل هذه المقابلات... عبثاً حاول فلم يجد صورة ووجد ملاحظة مكتوبة بخط غادة... معذرة لقد رفضت الأخت «عفاف» تعليق صورتها بجانب المقابلة.

أحس بشوق لمعرفة ما بهذه الأوراق... فتحها وأخذ يقرأ الأسئلة والأجوبة..... قرأها مرات عدة ثم لفها بعناية فائقة ووضعها في حقيبته مرة أخرىٰ...

نهض من فراشه وأخذ يسير داخل غرفته ذهاباً وإياباً... وهو يتصور عفاف ويتأمل أفكارها ومبادئها وتصوراتها عن الحياة... لا يدري لماذا ذكرته هذه المقابلة بسيرة كثير من العظماء الذين تربوا في كنف أمهات عظيمات... واقتنع أن عفاف تتكلم من قمة شامخة وأفق عال.

عاد إلىٰ سريره منهكـاً. أحس بثقل في رأسه ودوار فاستسلم لما يشبه النوم... لقد نام جسَداً وبقي عقله يقظاً.

وبعد فترة غير قليلة استغرق في النوم، ولم يدر أهو في ساعات السمر أم السحر.

وبعـد ساعات قليلة ظنها الدكتور سراج لحظات. أحس أن الحياة تدب في كل ما في القرية... فقد بدأت الطيور بالتغريد والأرانب بالتراقص، واستعرضت الديكة قواهـا. وماءت المواشي حتىٰ المياه تدفقت في الغدران والقنوات فأحدثت هديراً...

حاول أن يتجاهل كل هذه الأصوات ويغمض عينيه عله ينام قليلاً ولكن هيهات هيهات... فإن أصوات العمال والرعاة والفلاحين تعلو مستبشرة فرحة بيومها الجديد.

قرر الدكتور سراج أن يبدل ملابسه ويخرج ليشارك في الاحتفال بمهرجان الصباح هذا.

حياه كل الفـلاحين والعمال بحرارة... وجاء كبار

السن ليسلموا عليه . . . وكان كلما رأىٰ واحداً حاول تذكره جيداً، فكان يفلح أحياناً ويخلط أحياناً مما أشاع جو الفرح والمرح بين الفلاحين البسطاء.

افترش الدكتور سراج معهم الأرض تحت أشعة الشمس الدافئة وارتشف فنجاناً من الشاي المصنوع علىٰ الفحم.

أحس بعدها أنه أصبح نشيطاً بل متدفقاً بالحيوية والنشاط.

بعدها دخل بيت أخته ليراها وهي مشغولة بتجهيز أشهىٰ وألذ المأكولات الطازجة . . . بدأ يسحب بعض المأكولات التي طالما اشتاق إليها. تذوق الجبن البلدي اللذيذ . . . والزيتون الرائع وكلما ذاق شيئاً أحس بنشوة عارمة وسرور بالغ ـ أن طعم كل شيء ومنظر كل شيء يعيد له ذكريات الطفولة وأحاسيس الصبا الجميلة وطلب من أخته أن تعجل إعداد الفطور لأنه يريد أن يخرج ليتنزه في الحقول قبل اشتداد حرارة الشمس. كما طلب منها تجهيز الصغيرين «سرور» و«سارة» لكي يصحبهما معه.

رفعت أم سرور رأسها وحدقت برأس أخيها فرأت الشيب يغزو مفرقه. . . ابتسمت وقالت:

أصبحت يا سراج «شيبة» ولم نفرح بك بعد.

أجابها ببرود:

ـ ألم تفرحي بحصولي علىٰ الدكتوراه؟ هزت رأسها وضحكت ثم قالت:

لا تتهرب من الإجابة. . أنت تعرف ماذا أعني بالضبط.

ـ اصبري قليلاً وستعرفين الخبر.

اقتربت منه وقالت هات الخبر وسأكتمه ـ ارتخىٰ علىٰ كرسيه وركز نظره علىٰ بقايا كوب الحليب ثم تنفس بعمق وقال:

ـ الحقيقة أنني أفكر بالزواج لكني لم أجد الفتاة المناسبة بعد.

لمعت عينا أم سرور وكتمت ضحكتها وقالت:

ـ حولك عشرات الحسناوات ولم تفكر بواحدة حتىٰ الآن!!.

أكيد أنك فكرت بواحدة بل أكثر من واحدة. . .

ابتسم ابتسامة خفيفة وقال:
من أنبأك هذا؟؟. . . هذه هي مشكلتي أنا أفكر بأكثر من واحدة.

عندها بدأ الصغار يتعلقون بخالهم ويجذبونه من يديه يريدون أن يخرج بهم إلىٰ المزارع والحقول. فهم لا يهمهم موضوع الحديث من قريب أو بعيد. أطلقوا عدة أصوات تعبيراً عن الاحتجاج أولًا ثم التمرد علىٰ إخلاف الوعود السابقة.

أحست أم سرور أن الجو من حولها غير مناسب لمناقشة مثل هذه الموضوعات بعمق وموضوعية وربما أحست بشيء من معاناة أخيها تجاه هذا الأمر. فقالت:
- دعنا نناقش هذا الموضوع عصر هذا اليوم إن شاء الله.

* * * * * *

أمسك الدكتور سراج أيدي الصغار وخرج بهم وهو يشعر براحة بالغة فهو يريد إنساناً يشاطره الرأي ويفهم مشاعره وتطلعاته. وما يظن أن أحداً في هذه الدنيا سيفهمه

أكثر من أخته الحبيبة أم سرور فهي أشد الأخوات شبهاً بأمهم رحمها الله.

رأىٰ الدكتور سراج الحقول الممتدة الخضراء... وسمع خرير الماء المنساب عبر القنوات. قبض أيدي الصغار وردد أنشودة الطفولة المعذبة.

هنا الرمال الطرية

والبحر والحرية

والنسمة العطرية

فَرُحْ بنا نتسلىٰ

وشد يد سرور وهو يضحك بصوت مرتفع. ثم التفت إلىٰ الصغيرة سارة ويداه مشبوكتان بين سارة وسرور فجذب اليدين الصغيرتين وفي حركة رشيقة تشبه الرقص قال وهو ينظر إلىٰ سارة:

هنا الصفا العميم

هنا السرور المقيم

هنا الرضا والنعيم

فَرُحْ بنا نتسلىٰ

ضحك الصغار وضحك خالهم من أعماقه ثم ساروا

جميعاً نحو الغدير ووضع الدكتور سراج قدميه بالماء وبدأ يحدث الصغار. فسأل سرور:

ـ من أين يأتي كل هذا الماء يا سرور؟

ـ إنه يأتي من أعذب وأعظم نبع تفجر في قريتنا.

ـ هل تستطيع أن تأخذني إليه يا سرور.

ضحك سرور من أعماقه وقال... يا خال. أنت لا تعرف أن هذا النبع مرتفع في أعلىٰ ذاك الجبل البعيد... وأشار إلىٰ جبل بعيد تكسوه خضرة كثيفة... وأردف سرور قائلًا:

ظننتك يا خالي تعرف هذه الحقيقة منذ زمن.

ـ أية حقيقة يا سرور؟

ـ النبع الذي يروي الأرض المنخفضة العطشىٰ لا بد وأن يكون مرتفعاً وإلا كيف سيصل الماء؟؟.

ربت الدكتور سراج على كتف سرور ونظر إلىٰ الأفق البعيد وركز بصره علىٰ الجبل المقابل؛ حيث النبع العذب الرقراق.. وقال بنبرة عميقة... صدقت يا صغيري. صدقت يا سرور!!

أجابه سرور: لكني لست صغيراً يا خال. أنا رجل عمري الآن خمس سنوات ونصف وبعد شهور سأدخل

المدرسة . . .

قالت سارة بانفعال: وأنا أيضاً سأذهب إلىٰ المدرسة معك.

قال لها سرور: لا لا أنت صغيرة. لن تذهبي. عمرك أربع سنوات فقط. واحتد النقاش بينهما ـ فتدخل الدكتور سراج وأمسك بأيديهما وقال: ستكبران وتدخلان المدرسة إن شاء الله. وبعدها ستدرسان في الجامعة. . أنا كنت صغيراً مثلك يا سرور ألعب هنا وأقفز هناك، وأقع تارة وأقف أخرىٰ. . . أيام حلوة حلوة يا سرور.

ثم نهض وأمسك أيديهم بحرارة وقال: هيا بنا. .
مشىٰ الدكتور سراج بين الأعشاب البرية الخضراء التي كان يغوص فيها حتىٰ منتصفه. وينظر إلىٰ الصغار فيرىٰ أحياناً عيني سراج وربما يرىٰ شعرات سارة المتطايرة. . .

كان سعيداً سعادة لا توصف مع صديقيه الصغيرين، كانت جوارحه تتراقص طرباً وان احتفظ بتوازنه أمام الصغيرين. . . وبعد أن قطع شوطاً وسط الأعشاب. . توقف قليلاً ونظر إلىٰ الخلف وقال:

ـ لقد قطعنا شوطاً طويلاً يا سرور. . . ما رأيك أن نغير اتجاهنا ونقصد البيت من هذا الطريق. . . ؛ وأشار إلىٰ الناحية اليمنىٰ.

ـ لا يا خالي إنني أخاف من هذا الطريق. . .

ـ وهل هناك ما يدعو للخوف؟

كان في هذا الطريق مستنقع كبير قام أهل القرية بردمه، ولكن مكانه ما زال مليئاً بالطين والوحل.

وأنا لا أحب الأوحال يا خال. دعنا نسير من الناحية اليسرىٰ هناك أراضي واسعة بين الجبال يمكننا أن نسير عبرها.

وافق الدكتور سراج علىٰ اقتراح الصغير، ومسك أيدي الصغيرين وبدأ السير عبر المزارع الخضراء والقنوات الرقراقة.

أحس الصغيران بالتعب فطلبا من خالهما الجلوس في أحد الحقول. فنزل عند رغبتهما. . . حاولا اصطياد الفراشات المتطايرة. كانا يتضاحكان ويتطايران كالفراشات الوديعة. .

استغل الدكتور سراج انصراف الصغيران عنه

وانشغالهما بالفراشات الجميلة. . . بدأ يحدث نفسه ويحاورها ويتأمل الطبيعة الخلابة من حوله.

نظر إلىٰ مجموعة أشجار من بعيد. . . وقال: . . . كل واحدة تثمر حسب جذورها وأصولها. . . وأنت يا سراج. . . أصولك هنا وجذورك هنا. . فما بالك تعيش حياة غربية غريبة ـ ترىٰ لو قطعت من شجرة التفاح هذه غصناً وذهبت به إلىٰ أمريكا. . . هل يمكن أن يصبح رماناً!!. . لا لكن يمكن أن يثمر تفاحاً صغيراً فجاً ويمكن أن يثمر تفاحاً أكبر من هذا وأشهىٰ. . . كل شيء يتأثر ببيئته لا شك لكنك يا سراج عاقل. فليكن تأثرك إيجابياً فعالاً.

قطع الصغيران تأملاته وحبل أفكاره عندما جاءا مسرعين إليه يلهثان من متابعة الركض وراء الفراشات. ارتمىٰ كل واحد منهما بجواره. . . ووضع سرور يده علىٰ فخذ خاله ونظر إليه قليلًا ثم قال:

ـ احكي لنا حكاية يا خالي!

ـ حكاية عن ماذا؟

ـ عن أي شيء تعرفه. أي قصة حلوة.

ـ أنا لا أعرف القصص نسيتها كلها.

قالت سارة:

ـ إذن أنشد لنا أنشودة!!

ـ أأنشد لكم ولا أعرف أن أنشد؟!

ـ إذن ماذا تعرف؟

ـ أستطيع أن.... وسكت ولم يشأ أن يبوح بحقيقة نفسه.. أنه يمكن أن يغني!! فقال لهم: أنا لا أعرف شيئاً حدثوني أنتم.

ـ نحن نعرف الكثير فماذا تريد؟

ـ آخر شيء تعلمته يا سرور. ما هو؟

ـ آخر شيء تعلمته يا خالي آيات من القرآن الكريم.

ـ رائع. رائع يا سرور هات ما عندك.

اعتدل سرور في جلسته وركز بصره على الجبال الشاهقة أمامه. وقال بصوت جميل أخاذ:

ـ أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ـ بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨ وَلَا تَكُونُواْ

كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (١٩) لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠) لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٢١)﴾.

الحشر (١٨ ـ ٢١).

انسابت الآيات الكريمة بصوت بريء خاشع. فاستقرت في قلب الدكتور سراج وبدأ يتفكر ويحدث نفسه قائلاً:

ـ هذه أمثال لمن يتفكرون أيها الدكتور المتفكر والمتفلسف.

رفع رأسه ونظر إلىٰ الجبل ثم أطرق ونظر إلىٰ نفسه. . . وأحس أنه صغير هزيل أمام ذاك الجبل. . . وبدأت مشاعره تمور بين أحاسيس الطفولة والصغر. وأحاسيس الكبار والصغار وخشي أن يكون من الذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم. . . لا يدري ما الذي جعل جلده يقشعر وقلبه يهتز وجوارحه تضطرب. . وكلماته تموت علىٰ شفتيه.

كان صامتاً في شبه ذهول. . . حرّكته الصغيرة «سارة» وقالت:

- ألا تسمعني يا خالي؟

- أجابها: بل أسمعك.

- استأذنتك بالقراءة مرات عديدة ولم توافق لماذا؟

التفت إليها وفتح عينيه وابتسم ابتسامة مفتعلة وقال: هيا تفضلي.

- أنا أحفظ قصار السور فقط.

تهلل وجهه وربت على كتفها وقال: تفضلي تفضلي. وكاد أن يقول لها «أنا مثلك بالضبط أحفظ بالكاد قصار السور».

﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ۝١ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ۝٢ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ۝٣ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ۝٤ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ۝٥ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ۝٦ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ۝١٠﴾.

اغرورقت عينا سراج بالدموع. . . وكرر: ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها. . . . قد أفلح من؟ . . قد أفلح من زكاها وقد خاب من؟ وقد خاب من دساها. .

ثم نظر إلىٰ الصغيرين وشكرهما بحرارة وقال لهما: هيا إلىٰ البيت.

سار الدكتور سراج والصغيران في الطريق الطويل. وكـان يستمـع لكلامهما أحياناً وتعليقاتهما وضحكاتهما، وأحياناً يشرد ذهنه منه ويتفكر في أمور شتىٰ.

وصل الجميع البيت وكان قد سبقهم إليه أبو سرور فاستقبلهم علىٰ الباب مرحباً وضاحكاً ومازحاً. ومتسائلاً:

ـ ألم يزعجك الصغار يا عزيزي؟

ـ لا بل أنا سعيد معهم وبهم إنهم أحبابي. وربت علىٰ كتفيهم وقال لوالدهم: هنيئاً لكم بهم والله. بارك الله لكما ومتعكما بهما.

دخلت أم سرور غرفـة الاستقبـال فرحبت بأخيها ودعت الجميع إلىٰ مائدة الغداء.

تناول الدكتور سراج غذاءه وهو شارد الذهن، لا يدري مالذي أثر به. لاحظت ذلك أم سرور فقالت:

ـ يبدو أنك متعب يا أخي. سأجهز لك غرفتك علماً بأن موعد مناقشتنا اقترب.

ـ بعدما أستريح سأنثر لكما ما في قلبي.

دخل غرفته وأغلق الباب خلفه وبدأ يعيد ترتيب أفكاره. كان ممدداً في سريره وجوارحه تتأرجح بين عقله وقلبه. هو لا يدري ما الذي يحس به حقيقة... أهو الشعور بالوحدة؟ أم هو العودة إلى الفطرة والجذور والأصول والتي كان يظن جازماً أنها فترات لم ولن تعود إلىٰ حياته!!.. هل هو إحساس بالتباعد بين اضطراب حياته واستقرار حياة أخته أم سرور.

ربما تقلب في سريره مرة لكنه قلب أمره مرات وربما أخذ غفوة بسيطة ثم خرج فجلس في صالة الاستقبال وأخذ يتأمل مناظر الطبيعة الخلابة وقد بدا عليه غير قليل من الهم والغموض.

أتت أخته أم سرور وجلست بجواره... نظرت إليه نظرات بعيدة وقالت:ـ

ـ ما بك يا أخي؟ يبدو أنك حزين، كئيب. لا أدري بالضبط كيف أراك؟ لكني أراك علىٰ غير عادتك ومرحك.

هل هناك ما يشغلك؟

تنهد تنهيدة عميقة وضرب بأصابعه علىٰ طاولة صغيرة بجواره... ثم رفع رأسه ونظر إلىٰ البعيد البعيد وقال:

نعم. هناك ما يؤرقني.

ثم التفت حوله وقال. أين الأخ أبو سرور؟

- سيأتي بعد قليل، لذا آثرت أن نتحدث أنا وأنت أولاً.

- أما أنا فيهمني رأي أبو سرور أيضاً. وبدأ يتحدث فقال:

- أنا الآن في حيرة شديدة وتردد بالغ، وأود أن أحدثك بصفتك أخت أولاً وصديقة ثانياً وإنسانة وعت الحياة وخاضت تجاربها.. وأتوقع أن تفهميني جيداً.

كانت أم سرور تستمع بكل جوارحها ثم قالت: تفضل خير إن شاء الله.

- كنت أظن أنه باستطاعتي - تأخير فكرة الزواج ريثما أهيىء شقة وفرش وما يناسب وضعي الاجتماعي عموماً. لكن وضعي الاجتماعي. هذا هو الذي جرني لكثير من المواقف غير المرضية أو المقنعة. ثم صمت قليلاً وقال:

ربما جررت لها بسبب الفراغ وكثرة العبث عندي وحب التسلية وتمضية الوقت لكني لا أكتمك حديثاً إنني أعود بعد كل عبث كئيباً، حزيناً، أشعر بأني إنسان فاشل وسمج أيضاً!!

قالت: في أي المواقف بالضبط يحصل لك مثل هذا؟؟

خذي مثلاً قبل يومين دعيت إلىٰ حفلة عيد ميلاد إحدىٰ طالباتي. كان الحفل متكلفاً مصطنعاً لم أشعر فيه بلحظة واحدة من السعادة والراحة بل علىٰ العكس كنت أقاوم موجات اختناق ألمت بي.

ـ عجيب أمرك يا أخي ما الذي دفعك لهذا الموقف؟

ـ قلت لك الفراغ والشباب. لقد سئمت الوحدة، أحس أنني أريد إنسانة تشاطرني أفكاري وطموحاتي ومشاعري ومشاريعي أيضاً.

ـ ولم لم تختر من بين الفتيات من حولك.

ـ الواقع أن مشاعري بين واقعين فقد كنت في أمريكا أعيش بحرية تامة كونت لدي أفكاراً ومبادىء ابتعدت بي عن أصولي وجذوري. وفي الجامعة الآن أعيش فترة صراع بين الحرية والالتزام. بين العصرية والرجعية.

فأنا أحب الفتاة العصرية المتحررة. أتعامل معها ببساطة أجلس معها في أي مكان وأمزح معها وأقضي وقتاً طويلاً لكن في النهاية... ضرب كفاً بكف وهز رأسه أسفاً. قالت أم سرور:

ـ إذن أنت لا تضحك معها بل عليها!

ـ وعلىٰ نفسي أيضاً، وفي المقابل يا عزيزتي فأنا أحترم الفتاة الملتزمة التي قد أصفها بالجمود والتعقيد. . . وهنا النقطة التي أستطيع حسمها مع نفسي وهي:

ـ هل أتزوج فتاة لا أحبها أم أتزوج فتاة لا أحترمها؟!

ـ إسأل نفسك يا أخي لماذا أحببت الأولىٰ ولماذا احترمت الثانية؟

ـ الأولىٰ شكل، مرح، حياة عصرية بكل معنىٰ الكلمة. فهي أنيقة في ملابسها. رشيقة في مشيتها. لبقة جداً في حديثها وهي جميلة إلىٰ حد بعيد. . . بصراحة تتمتع بجاذبية قوية.

وأما الثانية: وصمت برهة ثم تنهد تنهيدة عميقة واستقام في جلسته وبدا عليه غير قليل من الجدية والاهتمام.

فقالت أم سرور:

ـ هات ما عندك، قل يا عزيزي.

ـ بادي ذي بدء، فأنا لا أعرف الثانية إلا من خلال أوراقها ومواقفها ربما لم يجرؤ أخاك علىٰ النظر إليها ولم

يسمع منها سوىٰ بضعة جمل مختصرة. . . لكني علىٰ يقين تام بأنها فتـاة ذكية رزينة وقورة مهذبة هادئة الطباع. تستريح لرؤيتها العين، وتسكن لمنطقها النفس.

وهي صاحبـة مبـدأ تعيش من أجله. . . . إنها نسيج وحده. نسيج لم أر مثله في حياتي. تصوري أن نتيجتها بهرت الهيئة التدريسية لأنها حصلت علىٰ معدل تراكمي لم تشهده الكلية منذ خمس أعوام!

ابتسمت أم سرور ونظرت إلىٰ أخيها نظرات بعيدة وقالت: الحمد لله الذي جعل بين بنات الجامعات مثل هذه النماذج.

ثم هزت رأسها والتفتت إلىٰ أخيها وقالت:

ـ معادلتك يا أخي صعبة. . . دعنا نحاول حلها خطوة خطوة. . وأردفت قائلة:

ـ هل يمكن أن تحترم التي تحبهـا؟ قاطعها قائلاً: مستحيـل مستحيـل. . . فأشارت إليه بيدها وقالت: اسمح لي أن أكمل حديثي معك:

ـ وهل يمكن أن تحب التي تحترمها؟؟ نظر إلىٰ البعيد وحرك رأسه ببطء وقال لا أدري. . ولكن!!

قطعت الصغيرة سارة حديثهم ببكائها وصخبها. أسرعت أمها إليها محاولة تهدئتها لكنها كانت تبكي بحرارة وجاء سرور ليخبر أمه أن سارة حزينة من أجل فقدها للعقد الذهبي الذي كان علىٰ صدرها قبل الذهاب إلىٰ النزهة الصباحية... حاولت والدتها تهدئتها لكنها لم تفلح. طلبت منها الانتظار حتىٰ الصباح كي تستطيع البحث عنه بصوره أفضل... فأجابتها علىٰ الفور:

ـ لن أترك عقدي الذهبي. علق سرور قائلاً:

ربما يأتي غيرنا فيأخذه ويذهب عنها الذهب!

اقترح الدكتور سراج أن يأخذ الصغار ويعودوا من حيث أتوا في صباح هذا اليوم. كما اقترح الصغير سرور أن يأخذوا معهم السراج الصغير للبحث عن الذهب المفقود وسط الظلام.

تأهب الدكتور سراج والطفلان للخروج وسط تبرم الأم وشفقتها علىٰ أخيها ورغبتها في إتمام الحديث الذي لم يكتمل. ولكن صراخ الصغيرة أجبرها علىٰ الموافقة علىٰ مضض.

أخذ الدكتور سراج يسير مع الصغار وكان سرور

مسروراً بالسراج الصغير الذي يحمله. فيسلطه يمنة ويسرة علىٰ الذي يهمه والذي لا يهمه. . . كان سعيداً برؤية بيديه. ويضحك ملء فيه. . . ثم وقف فجأة ونظر نحو خاله وقال:

لماذا سموك يا خالي: سراج؟ هل تتساقط الفراشات من حولك وتخر صريعة؟؟

بهت الدكتور سراج بهذا السؤال ثم استدرك وقال: إسأل أمك لماذا سمتني أمها سراجاً. ولماذا سموك سروراً يا سرور؟

هز سرور رأسه وقال: عندما أعود إلىٰ أمي سأسألها.

استمر ثلاثتهم في العس والبحث عن الذهب المفقود. وكان الدكتور سراج يطلب من سرور أن يركز الضوء علىٰ بعض الأماكن التي جلسوا فيها في الصباح.

فسأله سرور. ولماذا يا خال؟

ـ الذهب يا سرور يتألق إذا سلط عليه الضوء. بخلاف الفراشات يا صغيري. . . وصمت برهة. . أحس أن هذه عبارات يجب أن يوجهها لنفسه قبل غيره.

بحث الجميع عن الذهب دون جدوىٰ. فقرر الدكتور سراج العودة فقد تأخر الوقت والصغيرة سارة ما زالت تنتحب وتبكي.

وعدها الدكتور سراج بوعود مختلفة لكنها أصرت بعناد علىٰ الذهب الخاص بها فقط. فهي لا تريد غيره لأنه كنزها المفقود!!

حمل الدكتور سراج الصغيرة سارة وعاد بها إلىٰ بيتهم وهي تئن وتتألم بسبب فاجعتها بالذهب. وبينما هو يسير تتقاذفه الطرقات والشعاب انزلقت قدمه في طين المستنقع فتلوثت إلىٰ منتصفها... شعر الدكتور سراج بغير قليل من التقزز والاشمئزاز التفت إلىٰ الصغير سرور وقال له:

- انتبه يا صغيري. هنا وحل المستنقع. تجنبه وحافظ علىٰ نظافتك فأنا يا صغيري قد تلوثت كثيراً وسوف اجتهد لتنظيف نفسي. جلس سراج علىٰ الأرض محاولاً التخلص من الطين قدر استطاعته... تأمل مناظر الجبال الشامخة أمامه تحت ضوء القمر الخافت. تذكر الآيات الكريمة التي سمعها من الصغار في الصباح. أحس بأحاسيس غريبة. تمنىٰ لو يمتد به الوقت ليجلس وحيداً هادئاً مفكراً

متـأملاً، ولكن هيهات هيهات فإن الصغيرة المفجوعة بكنزها لا تتوقف عن النحيب والبكاء.

حمل الصغيرة سارة ومسك يد سرور وأقبل مسرعاً نحو البيت لقد أخذ منه الجهد مبلغه. أحس بلسعة الجوع. وصل بيت أخته فشمّ رائحة طعام شهي.

استقبله أبو سرور هو والصغار وقال له:
- لم تأخرتم يا عزيزي؟
- يبدو أن الذهب «ذهب» لقد فتشنا المكان نزولاً عند رغبة سارة ولكن دون جدوىٰ.
- وهل تعتقد يا عزيزي أن الذهب ينتظرك.... لا بد من التفكير بغيره يا أخي... هيا بنا.

جلس الجميع علىٰ مائدة العشاء.... كان الدكتور سراج حزيناً علىٰ ذاك الذهب إلىٰ حد بعيد لا يدري لماذا يشاطر الصغيرة فاجعتها بالرغم من محاولات أخته وزوجها تهوين الأمر وتبسيطه!!

ونظرت أم سرور إلىٰ أخيها وقالت: تجاوز هذا الحزن يا أخي... فإن كان لنا في ذاك الذهب نصيب فسوف

يعود إلينا. ثم نظرت إليه وقالت: دعنا نكمل موضوعنا الذي بدأناه.

ثم نظرت إلىٰ أبي سرور وقالت له: وصلت بالنقاش مع سراج إلىٰ نقطة هامة أحب أن يسمع سراج بها رأيك وسوف أذهب أنا لتنويم الصغار ثم أعود إليكم بعد قليل إن شاء الله. نظر أبو سرور إلىٰ زوجته وقال: ما هي هذه النقطة الهامة؟ والتفت إلىٰ الدكتور سراج الذي بدا يائساً حزيناً.

انفرجت أسارير الدكتور سراج عن ابتسامة مصطنعة وقال:

السؤال ما زال يلح علي، هل أتزوج الفتاة التي أحبها أم الفتاة التي أحترمها؟

- اتكأ أبو سرور علىٰ أريكته وارتشف شيئاً من قهوته وقال:

إياك يا عزيزي أن تتزوج فتاة لا تحترمها. بل إني أرىٰ أن التي لا تستحق الاحترام لا تستحق الحب ولا التقدير ولا الالتفات إليها. وهي من باب أولى لا يمكن أن تكون زوجة وفية أو أما أمينة.

وأنت الآن تمر في مرحلة آنية تبحث فيها عن التسلية وعن السرور والمرح لكن. عندما تصبح أبا ستتغير موازينك وتتبدل يا أخي.

فاختر من الآن أماً لبناتك وليست صديقة لك فقط... ولتكن علىٰ يقين تام يا أخي إن الفتاة الصالحة تصلح صديقة وزميلة وأماً أيضاً.....

كان الدكتور سراج يصغي باهتمام إلىٰ مقالة أبي سرور فإنه يكن له الكثير من التقدير والاحترام.... وكان يقارن بأعماقه بين مقالة أبي سرور وإجابات عفاف علىٰ أوراق امتحاناتها.

شعر بدوار في رأسه فأطرق قليلاً وأحس بالدماء تتصاعد في عروقه.... لقد نسي نفسه... نسي أن قدميه ما زال فيها أثر الطين.... فاستأذن لتوه من أجل أن ينظف نفسه ويستحم. وشكر أبا سرور علىٰ اهتمامه ووعده بأن يتم نقاشه في الغد. لكن!

اقترب موعد سفر الدكتور سراج فصرح بذلك لأخته وقال لها بأنه سيسافر إما غداً مساء أو بعد غد صباحاً.

حاولت أن تقنعه بالمكوث فترة أطول. إلا أنه قال لها إن هناك أعمالاً لا بد أن ينجزها قبل بدء الدوام. أهمها تنظيم أسماء المتقدمين لطلب الدراسات العليا. وتنظيم جدوله في الفصل القادم. وردَّ أمور كثيرة متشابكة ربما لا يحمل من أوراقها سوىٰ بضع وريقات يمكنه تنظيمها بشكلها النهائي في مجلة الحائط.

نظرت أم سرور إليه وقالت: مجلة حائط. هات لنقرأ ما تحويه مجلتكم هذه. فوعدها أن يعطيها شيئاً منها لقراءتها. ثم استأذن ودخل غرفته لينام.

* * * * * *

كانت ساعات الليل تمر بسلام وأعماق الدكتور سراج تشهد أشد أنواع الصدام وألد أصناف الخصام.... كاد يحترق احتراقاً داخلياً كلما تذكر شيئاً من مواقفه في الجامعة... وكاد ينفجر ألماً وأسفاً وندماً علىٰ سقوطه في وحل المستنقع!! وبدأ يحدث نفسه:

سراج... إلىٰ متىٰ يا سراج ستبقىٰ غصناً طائراً منفصلاً عن فطرتك وجذورك؟! سراج إلىٰ متىٰ تلهو وتعبث وتضحك بلسانك وتبكي بوجدانك؟! أما آن لك

يا سراج أن تحدد هويتك لتعرف من ستختار زوجة لك؟!

ولم يا سراج تصارع نفسك الآن... هل لأنك عدت إلىٰ بيتك وأهلك وأختك؟ أم لأنك ستعود إلىٰ جامعتك وصويحباتك؟ أم لأن حياة أختك أثارت في مكامن نفسك الكثير الذي كنت تظنه قد مات؟!

الواقع يا سراج أنك لم تقدم لغدك شيئاً فكيف ستقدم عليه؟ ويبدو أنك يا سراج نسيت الله فأنساك نفسك!! ويلك يا دكتور أن الأطفال الأبرياء يفهمون سنن الحياة خيراً منك...!!فأنت أنت الذي قال فيه الشاعر:

وكم منجب في تلقي الدروس
تلقىٰ الحياة فلم ينجب

لكن لا. سوف أنهض من كبوتي إن شاء الله.

سوف أختار طريقي وسوف تسكن نفسي لواحدة منهن....

وبدأت صورة عفاف تتماثل أمام ناظريه.... وأوراقها، يا لأوراقها. يالروعة إجاباتها.... ونهض مسرعاً حول حقيبته وفتحها ونظر وتأمل ملف مجلة الحائط.

وقرأ إجاباتها. . . .

أنت يا عفاف النبع العذب الرقراق الذي يتدفق من علٍ فيروي الظمأىٰ. . . . وأنا يا عفاف أهلكني الظمأ.
وأنت يا عفاف الذهب الذي أبحث عنه.
وأنت يا عفاف. صاحبة الفكر. صاحبة المبدأ. . . من فكرك أنهل فلسفتي ومن مبادئك أرسم خططي.

استرخىٰ جسده وسكنت روحه وهو يتخيل طيف عفاف حوله. . ونام ملء جفونه. .

وفي الصباح حمل أوراقه وعرضها علىٰ أخته. . . فقرأتها بل درستها وتفحصتها ثم قالت:
ـ أخال هذه الإنسانة جوهرة أو ذهباً وإن شئت فقل لؤلؤاً مكنوناً تعرفها ولا تتقدم إليها؟ لكن يا سراج. . . أخشىٰ عليك. . أقصد أخشىٰ أن لا توافق عليك.

قاطعها أبو سرور وقال دعيه يتقدم لها أولًا وإن حصل صعوبات فنحن معك إن شاء الله فإنها ستكون نعم الزوجة وخير أم. وإن شئت فخير داعية أيضاً.

لا تتردد يا سراج. . . ودعني أبارك لك من الآن.

فرح الـدكتـور سراج لهذا التشجيع. وقـال: غداً سأسافر. غداً سأعانق الفجر.

وفي اليوم التالي... ودع سراج الأسرة الحبيبة. وعانق الصغيرة سارة بحرارة... وعزاها علىٰ فقدان ذهبها ربما للمرة العاشرة... وذهب باحثاً عن الفجر.

كان يشعر أنه يطير فرحاً وسروراً وحبوراً لقراره هذا.

كان يود لو يعرف رأي عفاف في كل ما يرىٰ ويسمع في رحلته هذه.

لأول مرة أحس أنه ينبض بنبض عفاف وأن عفافها رفعه إلىٰ القمم. تخيل أن الدنيا بين يديه بل لو أنه وزع فرحته علىٰ الدنيا لما وسعتها.

كاد يشغل شريط تسجيله الغنائي إلا أنه أحس أن روح عفاف ترفضها... فقال حسناً سأدرب نفسي علىٰ النزول عند رغباتك أيتها القمر الوديع.

وصل بيته وهو يدندن طرباً... نظم أشياءه وكاد يسألها ما رأيك بعفاف؟ هل تحبين أن تكون معنا في المستقبل؟

دخل الحمام. فاغتسل مراراً وكأنه يريد أن ينسلخ من لونه السابق، فغداً سنلتقي في الجامعة يا عفاف، وقال في نفسه:

لكن هذا الطير المحلق. كيف سأصطاده. لأهمس في أذنه وأقول له... هيا بنا نبني عشنا!!

وقفزت لذهنه فكرة... سوف يبدأ البحث عنها من دائرة التسجيل فهي حتماً ستسجل للدراسات العليا. ثم إنها لم تنه معاملات التخرج بعد. وضحك في نفسه وقال:
رب ضارة نافعة فأنا أمقت تعقيد معاملات التخرج هذه لكنني أحبها الآن جداً... منها سأسحب طيري بخيط!!

وفي صبيحة اليوم التالي. تزين الدكتور سراج. سرح شعره. ووضع عطره الفواح... واطمأن علىٰ سيارته اللامعة فاستقلها وذهب إلىٰ الجامعة ثم إلىٰ دائرة التسجيل.

وباتزان مفتعل. سأل عن أسماء الذين سجلوا للدراسات العليا. فسلمه الموظف المسؤول قائمة الأسماء فلم يجد فيها اسم عفاف. وبان علىٰ محياه شيء من

الامتعاض.

فسأله المسؤول. خيراً، هل هناك شيء...

- لا لكني قرأت أسماء طلبة سنعاني منهم أثناء تدريسهم دراسات عليا... ثم شكره وانصرف.

ذهب إلىٰ مكتبه شعر بالامتعاض - لأن مكتبه مظلم مهجور - نادىٰ مسؤول النظافة وطلب منه تنظيفه بسرعة وذهب إلىٰ غرفة مجاورة وأخرج أوراقه ليعلقها علىٰ مجلة الحائط. علق مقابلة عفاف في أعلىٰ وأجمل مكان وزينه بالزهور وترك بقية الأوراق ريثما يأتي أحد الطلبة ليعلقها بالنيابة عنه... ثم نظر إلىٰ المجلة وقال: منظر رائع.. لا يوجد غيرك يا عفاف كأنك ملكة تتربعين علىٰ عرش مملكتي!!

وهم أن ينصرف. وإذ بصوت شاب يناديه من بعيد فوقف الدكتور سراج ونظر إلىٰ البعيد. فرأىٰ شاباً صغيراً في مقتبل العمر وبجواره فتاة... حدق نظره يا الله إنها عفاف!! صعد الدم في عروقه وكاد أن يهرع نحوها، إلا أنه تمالك نفسه وخطا خطوات بسيطة مُرّحباً.

فمد الشاب يده مصافحاً الدكتور سراج وقال له عبدالرحمن عبدالله . أخو عفاف .

رحب به الدكتور سراج أيما ترحيب ودعاهما إلىٰ مكتبه إلا أن الشاب اعتذر لضيق الوقت . ثم أخرج له من حقيبته بطاقة دعوة وحيّاه بحرارة وقال له يشرفنا حضورك . فقال الدكتور سراج وهو ينظر إلىٰ عفاف التي تبدو أمام ناظريه الآن أجمل من أية فتاة في الدنيا . . . ابتسم وقال لأخيها ويشرفني أيضاً . . .

أخذ البطاقة . وأنجز بعض أعماله . . . ثم توجه إلىٰ مكتبه وهو يحدث نفسه أخيراً . . أيها الطير المحلق سأجتمع بك في مكان واحد غير الجامعة . . . أخيراً يا عفاف . وبدأ يدندن طرباً . . ويمشي وكأنه يرقص فرحاً .

ونادىٰ علىٰ الخادم :ـ

أريد فنجانا من الشاي يا عزيزي .

فأجابه بدهشة . لك وحدك . أم أنك تنتظر ضيوفاً .

ـ بل لي وحدي . . . وقال في نفسه لي ولطيف طيري الذي يحلق معي .

ثم اتكأ على كرسيه . . . وفتح بطاقة الدعوة وقرأ . . . .

يتشرف آل السيد عبدالهادي عقل وآل السيد عبدالله الأحمد

بدعوتكـــــم

لحضور حفل زفاف ولدهم على ابنتهم

المهندس : صاحبة الصون والعفاف الآنسة :

«سليم عبدالهادي» ***«عفاف عبدالله»***

تمـــت

أم حسان الحلو


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com





قصة صادقة